

## منازلة صور

ثم تَوَجَّه السلطان إلى صور فنازلها ونصب المجانيق عليها، وذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، وكان قد اجتمع في صور خلق لا يحصون من الفرنج، فقاتلهم السلطان قتالاً شديداً، وبقي محاصراً لها إلى أن انقضت السنة.

وفي هذه السنة فتحت هونين على يد الأمير بدر الدين دلدرم بالأمان.

## سنة أربع وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة رحل السلطان الملك الناصر عن صور، وذلك لأنه تعذر عليه فتحها لكثرة من فيها وقوة شوكتهم، فنزل على حصن كوكب، وذلك في العُشْر الأوسط من المحرم، فوجده حصناً لا يُرام، فَرْتَبَ قايماز النجمي في خمسمئة فارس، ثم رحل السلطان إلى دمشق فدخلها وأقام بها مُدَيِّدَةً يسيرة، ثم رحل منها إلى بعلبك فرتب أمورها، ثم سار إلى الزراعة، فوصل الخبر أن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار قد وصل إلى بحيرة قدس قاصداً خدمة السلطان لأجل الغزاة، فسار السلطان ملتقياً له وعانقه، ثم نزل ببخيرة قدس وخيما عليهما، ثم سار السلطان بالعساكر حتى نزل البقيعة تحت حصن الأكراد وذلك في أول ربيع الآخر، وبث العساكر في تخريب بلاد الفرنج وقطع أشجارهم ونهب أموالهم، ثم رحل السلطان إلى طرطوس ففتحها عنوة وقتل من ظفر به فيها.

## فتح جبلة واللاذقية

ثم مضى السلطان إلى جبلة فتسلمها بالأمان وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ثم رحل منها إلى اللاذقية فحاصرها حصاراً شديداً إلى أن طلب أهلها الأمان فأمنهم وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى. ثم رحل منها إلى صهيون ففتحها بالأمان على قطيعة قررها عليهم، ثم توجه إلى الثغر فتسلمه بالأمان، ثم تسلم أيضاً بكاس وسلمها إلى الأمير غرس الدين قلج الساقى والد الأميرين سيف الدين وعماد الدين، ثم سار السلطان ولده الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب قلعة سرمانه فهدمها وقرر على أهلها قطيعة أخذها منهم.

ثم سار السلطان لست بقين من جمادى الآخرة فخيّم على حصن برزية وضربه بالمجانيق، فطلب أهله الأمان، فأمنهم وسلم هذا الحصن إلى الأمير عز الدين بن شمس الدين بن المقدم، ثم رحل السلطان إلى دربساك فتسلمها، ثم رحل إلى حصن بغراس فتسلمه أيضاً، ثم عزم على قصد أنطاكية فرغب الإبرنس صاحبها في الهدنة فهادنه السلطان، ثم رحل السلطان لثلاث مضيّن من شعبان على سمت حلب فودعه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعساكر الشرق، وعادوا إلى بلادهم.

ودخل السلطان إلى حلب فأقام بقلعتها أياماً، ثم سار إلى حماه فأقام بها يوماً، ثم سار إلى دمشق فأقام بها أياماً، ثم خرج منها في أوائل شهر رمضان طالباً للغزاة.

وفي هذه السنة كان فتح الكرك والشوبك، وكان من حديث ذلك أن السلطان الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب كان مقيماً بتبنين في عساكره متحرزاً على البلاد من غائلة العدو، وكان صهره كمشبه الأسدي

موكلاً بحصار الكرك، فضاقت الميرة عليهم ويثسوا من نجدة تأتيهم، فتوسلوا إلى الملك العادل وتضرعوا إليه، ومازالت الرسائل تتردد بينهم وبينه حتى دخلوا تحت حكمه، وخرجوا من الحصن وسلموه إلى المسلمين، ووردت البشائر بفتحه على السلطان الملك الناصر وقد برز من دمشق، ثم تسلم أيضاً الشوبك.

### فتح صفد

ثم سار السلطان إلى صفد فنازلها، ووصل إليه أخوه الملك العادل واجتمعوا على حصارها ودار الحصار والقتال إلى ثامن شوال، فطلبوا الأمان فأمنوا ودخلها المسلمون وتسلموها.

### فتح كوكب

ولما فتح السلطان صفد سار إلى حصن كوكب، ونازله ونصب عليه المجانيق، فطلب أهل الحصن الأمان، وتسلّم الحصن منهم، وذلك في منتصف ذي القعدة.

ثم سار السلطان ومعه أخوه الملك العادل قاصداً بيت المقدس، فوصله في ثامن ذي الحجة فعَيَّدَ به، ثم سار إلى عسقلان فرتب أمورها وجهاز أخاه الملك العادل إلى مصر، ثم رحل صوب عكا فوصلها في آخر ذي الحجة.

وفي هذه السنة كان مقتل شمس الدين محمد بن المقدم غَلَطاً في فتنة وقعت بينه وبين أمير الحاج العراقي بالموسم، وكان سببها أن شمس الدين أراد تقديم طبوله على طبول الخليفة الناصر لدين الله، فَمُنِعَ من ذلك، وجرى ماذكرناه.

## سنة خمس وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة صار السلطان الملك الناصر رحمه الله من عكا متوجهاً إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر، ثم رحل منها لثلاث مضيّن من ربيع الأول متوجهاً إلى شقيف أرنون فأقام بمرج برغوث حتى اجتمعت إليه عساكره، ثم رحل حتى أتى مرج عيون وذلك لاحدى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، فخيم بمرج عيون على قرب من شقيف أرنون، وهو يومئذ بيد أرناط صاحب صيدا، فنزل إلى خدمة السلطان وأظهر الطاعة وسأل أن يُمهّل ثلاثة أشهر ليتمكن فيها من بَصُور من أهله، فأجابه السلطان إلى ذلك، وخلع عليه وأكرمه، فشرع أرناط في إصلاح الحصن وترميمه، والمسلمون في غفلة عنه، فلما بلغ السلطان ما هو بصدده من عمارة الحصن وتقويته انتقل من المرج إلى سطح الجبل ليلاحظ أرناط ويطلع على حاله، وأظهر إنما هو انتقل لأن المرج وَخِيمٌ، فعلم أرناط بذلك فنزل إلى السلطان طائعاً متذليلاً متضرعاً فكذب السلطان ما قيل عنه، ثم دَنَتْ المدة فسأل السلطان أن يزيده في مدة الإمهال، فعلم السلطان غَدْرَهُ وَنَكْثَهُ فقبض عليه وسيره إلى دمشق فحبس بها، ووكل بالحصن يحاصره صيفاً وشتاء.

ثم بلغ السلطان أن الفرنج قد حشدوا وجمعوا وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، فرحل السلطان إليهم فكانت بينهم وبينه وقعة كانت الكرة فيها للفرنج، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم كَرَّ المسلمون عليهم فَرَدُّوهُمْ حتى ازدحموا على جسر هناك، ففرق منهم مئتا رجل، ثم سار السلطان إلى تبين فرتب أمورها، ثم سار منها إلى عكا ورتبها، ثم عاد إلى معسكره فأقام به.

## نزول الفرنج على عكا

وفي هذه السنة قصدت الفرنج عكا، ونازلتها فرحل السلطان الملك الناصر رحمه الله حتى نزل قبالتهم بمكان يقال له الخروبة، ثم وقعت الحرب بينهم وبينه إلى أن انقضت السنة، وكان فيها وقعات بين المسلمين والفرنج يطول الكلام بذكر تفصيلها ويخرج الكتاب عن حَدِّهِ.

### سنة ست وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والقرنج يحدقون بعكا محاصرون لها، والقتال مستمر بين الفريقين فتارةً يظهر المسلمون وتارةً يظهر الفرنج.

وفي هذه السنة قَدِمَتْ العساكر من جميع الأقطار مدداً للسلطان الملك الناصر رحمه الله، فكان أول واصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير عز الدين بن المقدم وغيرهم، فكثرت العساكر واشتدت الحرب بين الفريقين، ثم وصل مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ثم عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، ومعز الدين سنجر شاه بن غازي، ثم علاء الدين خُراً مشاه بن مسعود في عساكر الموصل، ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل في جنود كثيرة، واشتدت الحرب، وضايقت الفرنج عكا، وجاءتهم الأمداد من البحر.

وفي هذه السنة توفي زين الدين يوسف بن علي كوجك، ففوض السلطان مملكة إربل إلى أخيه الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين.

## سنة سبع وثمانين وخمسمئة:

دخلت هذه السنة وقد اشتدت مضايقة العدو خذله الله لعكاء، والقتال بينهم وبين السلطان الملك الناصر رحمه الله مستمر، وأمداد الفرنج من البحر متواصلة، ولما اشتد الحصار على أهل البلد واحيط بهم ولم يبق الا تسلماً، وضعفت قوة المسلمين به وقلت منعتهم، ونقبت بدنه من الباشورة، ويثس الناس من بقاء البلد، خرج الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري الى ملك الفرنج وطلب منه الامان فأبى ملك الفرنج الا النزول على حكمه، فقال له المشطوب: نحن لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ورجع عنهم مغاضباً.

ولما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة زحف الفرنج الى عكا زحفا شديداً، وأشرفوا على الاستيلاء عليها فطلب المسلمون منهم الامان على ان يسلموا اليهم البلد، ويعطوهم: مئتي الف دينار، ومئة أسير من المعروفين، وخمسمئة أسير من المجهولين وصليب الصلبوت وعشرة آلاف دينار للمركيس واربعة آلاف لحجابه، فأجابهم الفرنج الى ذلك وتسلموا البلد واحتاطوا على من كان بها رهينة على القطيعة المقررة.

فلما كان ثامن من رجب جاءت رسل الفرنج الى السلطان لأخذ القطيعة، فأحضر السلطان مئة ألف دينار وصليب الصلبوت والأسارى المطلوبين، وشرط عليهم أن يطلقوا جميع من أخذوا من المسلمين وأن يأخذوا على بقية المال رهائن، فأبوا الا الجميع ومازال الأمر يختلف بينهم ويتردد تنمة شهر، ثم حضرت رسل الفرنج فوجدوا المال موقورا، ووجدوا صليب الصلبوت، وقد كانوا ظنوا أن السلطان قد سيره الى الخليفة ولاوجود له عنده، فخروا له سجدا حين رأوه، ثم ظهر للسلطان مكرهم وغدرهم فتوقف في اعطاء المقر، وكان من جملة ما بان له من غدرهم ان

ملك الانكتير ركب بالفرننج الى البحر، فركب السلطان قبالتهم فأحضر الفرنج جماعة من أسارى المسلمين وحملوا عليهم فقتلوهم أجمعين، فحمل المسلمون عليهم فأزالوهم عن مواقعهم وقتلوا منهم جماعة، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم تصرف السلطان في ذلك المال المقر.

ولما دخل شهر شعبان رحلت الفرانج بخيلهم ورجلهم، فعرف السلطان ان مقصدهم عسقلان فرحل بالمسلمين في قبالتهم، وما زال يترك المسلمين يقاتلونهم مرحلة مرحلة، ثم كانت وقعة بينهم وبين السلطان بنهر القصب واستشهد من المسلمين في هذه الوقعة إياز الطويل، وكان شجاعاً مقداماً.

ثم كانت وقعة بأرسوف كانت الكرة فيها على الفرنج ووصل السلطان عسقلان فشرع في هدمها وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان، ثم رحل السلطان الى يبنى، فأمر بتخريب حصنها، وتخريب لُدّ، ثم مضى جريدة الى القدس فزاره ثم عاد.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين أبي الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية.

سيرته: كان ملكاً شجاعاً عادلاً كريماً بطلاً كميلاً ضرعاً، ولما توفي فوض السلطان الملك الناصر عمه الملك بحماه، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، الى ولده الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب وبعث اليه منشوراً بذلك فتسلم هذه البلاد وملكها.

وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين لاجين وهو ابن أخت السلطان، وكانت وفاته لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وهو اليوم الذي توفي فيه الملك المظفر، فأصيب في يوم واحد بابن أخيه وابن

اخته، وكان هذا حسام الدين أميراً عظيم الشأن عاقلاً عادلاً شجاعاً، وهو الذي تولى فتح نابلس من الفرنج فأقطعه السلطان إياها، فكانت في يده إلى أن مات.

### سنة ثمان وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنة قسم السلطان الملك الناصر رحمه الله عمارة سور بيت المقدس على أخيه واجناده وأولاده، ولم يزل رضي الله عنه جاداً مجتهداً في عمارتها حتى علت وارتفعت، شكر الله سعيه وأحسن جزاءه.

وفيها كان خلاص الأمير سيف الدين المشطوب من أسر الفرنج على مال قرره لهم، فأقطعه السلطان نابلس، ثم عاش سيف الدين إلى آخر شوال من هذه السنة ثم توفي فعين السلطان ثلث نابلس لمصالح البيت المقدس، وأبقى باقيها على الأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين المشطوب.

وفيها قصد الفرنج قلعة الداروم فحاصروها ثم فتحوها عنوة، وقتلوا من أهلها جماعة، وأسروا جماعة، وذلك في شهر جمادى الأولى، ثم كانت في هذه السنة وقعات بينهم وبين المسلمين في كلها يكون الظفر للمسلمين إلا وقعة واحدة كان مقدم المسلمين فيها فلك الدين أخوا السلطان [العادل] فإن الفرنج دهمهم على غرة فهزمهم واحتوا على أنقاهم.

وفيها نزل السلطان على يافا ففتحها عنوة ونهبها وقتل جماعة منهم بها، وامتنعت عليه قلعتها فطلب أهلها الأمان أن ينزلوا تحت حكم الأسر، ويسلموا جميع الأموال والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير من المسلمين فأجيبوا إلى ذلك، وخرجوا آحاداً وعشرات، وطولوا ساعات الانتقال، حتى دخل الليل، فاستمهلوا إلى الصباح ومازالوا في التسوية

حتى وصل اليهم ملك الانكتير ليلا من جانب البحر، ودخل القلعة فنادوا بشعار الغدر، فاكتفى المسلمون منهم بمن حصل في أسرهم، ورحل السلطان الى الرملة.

ذكر الهدنة: ثم وقعت الهدنة بين السلطان والفرنج مدة ثلاث سنين وثمانية اشهر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية، واستعاد منهم الداروم.

ثم رحل السلطان رحمه الله الى البيت المقدس فأقام به منشغلاً باتمام أسواره، ثم رحل الى دمشق فدخلها في أول ذي القعدة.

وفي هذه السنة قتل سلطان الروم قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان وهو من السلاطين السلجوقية على ما ذكره العماد الكاتب، وكان أولاده غالين عليه، وليس له معهم الا مجرد الاسم، فلما مات ملك ولده غياث الدين كيخسرو بن قلعج أرسلان.

## سنة تسع وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شادي، رحمه الله، وقدس روحه، وذلك بكرة يوم الاربعاء لثلاث بقين من صفر، فكانت مدة عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً فمات بموته الرجال، وفات بوفاته الافضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الارزاق، وادهمت الآفاق وخاب الراجون، وغاب اللاجون، وخاف الآمن، وخاب الآمل، وطردت الضيوف، ونكر المعروف، وفجع الزمان بواحد وسلطانه، ورزيء الاسلام بمشيئ أركانه.

سيرته رضي الله عنه: كان رضي الله عنه خائفاً من ربه تعالى، شديد التمسك بالشريعة، محباً للعلم والعلماء، مواظباً على الجهاد في سبيل الله، مقبلاً على تحصيل ما يقربه من الله زلفى، مقيلاً للعثرات، متجاوزاً عن السيئات، كريماً لين الجانب متواضعاً، حسن الاخلاق طيب الاعراق، ضحوكاً بمهابة، مخوفاً بجلالة، يغضب للكباثر، ولايسامح بالصغائر، غزير البذل كثير العطاء، وأقل شاهد على صحة ذلك أنه كان جامعاً بين مملكة الشام واليمن وديار مصر وبلاد المشرق، ومات وليس في خزائنه درهم ولاديناره، ومات دفن بالقلعة المحروسة في داره وأظلم الدهر بعد ضياء أنواره، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس الأعلى مأواه.

## خبر أولاده وأهل بيته بعد وفاته رحمه الله:

ولما توفي السلطان الملك الناصر رحمه الله استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أيوب، وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن يوسف ابن أيوب وبحلب وأعمالها ولده الملك الظاهر غياث الدين، ايل غازي ابن يوسف بن أيوب. وكانت حران والرها وكل ما هو شرقي الفرات من الولايات بيد السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وحماء والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم بيد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وبعلبك وأعمالها بيد الملك الأجدد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب. وحمص وأعمالها بيد الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن شاذي.

وكان السلطان الملك العادل رحمه الله حين بلغه وفاة أخيه الملك الناصر بالكرك وهي حصنه ومستقرة، فقدم الى دمشق وأقام بها العزاء، ثم توجه الى قلعة جعبر حذراً على البلاد الشرقية من غائلة العدو، فأقام بقلعة جعبر، وبعث النواب الى حران، والرها، وميافارقين، وحاني، وسميساط، ورتب امورها.

ولما بلغ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة السلطان الملك الناصر خرج بالعساكر الكثيرة الى نصيبين وبها أخوه عماد الدين زنكي، واجمعوا على حرب الملك العادل واخراجه من البلاد، وكان الأمير بكتمر صاحب أخلاط قد ضرب البشائر حين بلغه موت السلطان، وعظم سروره بذلك، وتسمى بالملك الناصر، وكاتب صاحب الموصل وصاحب سنجار، وصاحب ماردين، لينجدوه على حرب الملك العادل، فبينما هو في تيهه وطغيانه وقد حدثته نفسه بما لم يظفره القدر به اذ وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وكفى الله السلطان الملك

العادل شره، وكان هذا عنوان السعادة ودليلها، وكان مقتله لست عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى.

وكتب الملك العادل الى بني أخيه: الملك الافضل، والملك العزيز والملك الظاهر يستصرخ بهم، فأنجدوه بالأمداد والعساكر، وجاءته عساكر: بعلبك، وحمص، ودمشق، مع الملك الظافر خضر بن الملك الناصر.

وأما المواصلة فإنهم وصلوا الى رأس عين، ومضى الملك العادل الى حران وخيم بها، فاتفق مرض عز الدين مسعود صاحب الموصل فحمل اليها في محفة، وعاد عماد الدين صاحب سنجار راجعاً، وراسل صاحب ماردين الملك العادل في الصلح فرضي عنه.

ثم أمر الملك العادل ابن أخيه الملك الظافر بمنازلة سروج، وكانت لعماد الدين صاحب سنجار، فنازلها وجهز اليه الملك العادل مددا الملك المنصور صاحب حماه، والأمير عز الدين ابراهيم بن المقدم، فنازلوها وفتحوها لثلاث مضي من رجب، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله في منتصف رجب الى الرقة فحاصرها وتسلمها في العشرين منه، ثم رحل الى الخابور فملكة، ثم رحل الى نصيبين فنزل بظاهرها، وأتته رسل صاحب سنجار في طلب الصلح.

واتفقت وفاة عز الدين صاحب الموصل في هذا الشهر، فملك بعده ولده نور الدين رسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي، وجرى الصلح بينهم وبين الملك العادل، ثم قصد السلطان العادل أخلاط، فخاف من البرد إن نازلها فأخر أمرها الى الربيع وعاد الى الرها وحران.

## ذكر ابتداء الوحشة بين الاخوين الملك الافضل والملك العزيز:

كان للملك الافضل وزير من أهل الجزيرة غاش، فأشار عليه بإبعاد أمراء أبيه وأكابر أهل دولته، وحمله على ان يستجد أمراء وأصحابا من مماليكه المستجدين، واخبره ان أمراء أبيه يشتطون عليه ولا يرضون منه إلا بالكثير، وأعمال دمشق لاتسعهم، وانما تسعهم أعمال مصر، وان الغرباء والمستجدين من مماليكه يرضون منه بالقليل وأي شيء أعطاهم استكثروه، فاغتر الملك الأفضل بقوله، وكان ذلك من الخطأ البين والتدبير الفاحش السيء، فأبعد أمراء أبيه والعظماء من أتباعه حتى أبعد القاضي الفاضل مع جلالة قدره وغزارة فضله، والعماد الكاتب مع فصاحته وبراعته واستخدم أمراء مجهولين وممالিকা حاملين.

وأشار عليه ايضا باخلاء البيت المقدس، وتسليمه الى نواب اخيه الملك العزيز، وأخبره أنه يحتاج الى مؤن عظيمة وكلف كثيرة ففعل ذلك الملك الافضل، وكاتب أخاه في تسلم القدس فقبله الملك العزيز وسر به وشكره على فعله، وكان السلطان الملك الناصر رحمه الله قد جعل ثلث ارتفاع نابلس وقفا على عمارة القدس ومصالحه، فعان الولاة بنابلس وأكلوا، ولما بلغهم عزم الملك الافضل على تسليم القدس الى الملك العزيز خافوا منه أن يحاققهم ويحاسبهم ويصرفهم عن ولاياتهم، فكتبوا الملك الأفضل يبذلون له القيام بسائر مصالح القدس من وقفه، وأنهم لايجوجون الى بذل شيء آخر من ماله.

فأجابهم الملك الأفضل الى ملتمسهم، وبدا له فيما كان كاتب الملك العزيز به، فتألم الملك العزيز من ذلك واستوحش بسببه.

وكان الملك الافضل كلما أبعده أميراً وكبيراً من أصحاب أبيه، أدناه الملك العزيز، وقربه، وفسح أمله، وأجزل عطائه، وأقطعته الاقطاعات

الكثيرة، وأحسن الى أمراء أبيه وأصحابه المعتبرين، وحفظ عهودهم القديمة فأحبوه ولاذوا بكنفه وعاضدوه فتمكنت دولته وتشدت مملكته، وكانت سيرته بالعكس من سيرة اخيه.

وكان من جملة الأمراء الذين صاروا الى الملك العزيز، وفارقوا أخاه الملك الأفضل الأمير فخر الدين جهاركس، فجعله الملك العزيز استاذ داره، وقدمه على أمرائه، والأمير فارس الدين ميمون القصري، والأمير شمس الدين سنقر الكبير، وهؤلاء الثلاثة من عظماء الدولة وأكابرها.

وقويت الوحشة بين السلطانيين الافضل والعزيز، واجتمعت كلمة الامراء الصلاحية على أن يكون الأمر مجتمعاً للملك العزيز إذ هو محيي سنة والده وسالك طريقته، فاختلت امور الملك الأفضل واضطربت أحواله، ولو كان مع تقدير الله سبحانه، سلك طريق الرأي والحزم لكان الأمر بخلاف ماوقع، لكن لكل مقدر سبب.

### سنة تسعين وخمسمئة:

في هذه السنة خرج السلطان الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر الى البقاع وخيم بها، فقبل للسلطان الملك العزيز: ان توانيت ذهبت بلادك، فبرز الى البركة وبذل الاموال وقصدته الرجال وعظم أمره، وسار في الارض ذكره، فخاف الملك الافضل لما بلغه ذلك، واستشعر ونزل برأس الماء، واستشار أصحابه فاختلفت آراؤهم واضطربت، وفارقه الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وصار الى الملك العزيز، فجعله من أكبر امرائه، فكاتب الأفضل اخاه الظاهر صاحب حلب وحالفه على الاتفاق والمعاضدة، وكاتب عمه السلطان الملك العادل يستنجده ويستصرخه.

حصار دمشق: وقدم الملك العزيز في جحافلها فلما وصل الى الفوار ، وكان أخوه الأفضل نازلاً بها، خالطت مقدمته ساقه عسكر دمشق، فولوا منهزمين لايلاون على شيء، ودخل الملك الأفضل دمشق على أقبح صورة، ونزل الملك العزيز بالكسوة، وذلك لست مضين من جمادى الآخرة، ثم نزل في سابع جمادى على دمشق محاصرهما، والأفضل يدافع ويمنع الى أن وصل عمه السلطان الملك العادل رحمه الله، وكتب الى ابن اخيه الملك العزيز يسأله الاجتماع به فاجتمعا راكبين بصحراء المزة، وسأله الاقلاع عن قتال اخيه، وان يكف عنه، فأجاب الى ذلك وامثل أمره.

وقوع الاتفاق بين الملوك: ثم تأخر الملك العزيز مرحلة الى صوسب داريا والاعوج، وكان بدمشق عند الملك الأفضل الملك المنصور صاحب حماه، والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك.

ثم وصل الملك الظاهر بن الملك الناصر صاحب حلب الى دمشق، ووقع الاتفاق على عقد الصلح بين الجميع، ورحل الملك العزيز الى مرج الصفر فنزل به، وكتبت نسخة يمين مضمونها: أنه يكون كل واحد من الملك الأفضل والملك العزيز، والملك الظاهر، والملك العادل بيلاده وأجناده آمناً من أن يقصده صاحبه، وان الملك المجاهد أسد الدين، والملك الامجد يكونان مع الملك الأفضل مؤازرين له، وأن الملك المنصور صاحب حماه يكون مع الملك الظاهر مؤازراً له.

وحلف الملك العزيز بمقتضى هذه النسخة وزال الخلاف وسكنت الدهماء، وخطب الملك العزيز ابنة عمه الملك [العادل] فأجيب الى ذلك، وعقد عقد النكاح وكان متوليه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق، وحلفت الملوك، ورجع الملك العزيز الى

مصر بعد ان خرج الناس من دمشق لوداعه، وذلك في شهر شعبان ورجع كل ملك الى بلده.

ورجع السلطان الملك العادل الى البلاد الشرقية، وأقبل الأفضل على الشرب واللهو وأعرض عن الاشتغال بمصالح الرعية، والامور كلها معذوقة بوزيره الجزري، وكان الجزري هذا سيء الرأي، فاسد التدبير، ردىء السيرة، فتشعثت بسببه الامور، وفسدت المملكة، ففارق الملك الأفضل الأمير عز الدين سامة، وشمس الدين ابراهيم بن السلار، ومن الأعيان جمال الدين بن الحسين، والقاضي محيي الدين بن زكي الدين لما شاهده من الأحوال الفاسدة، وحرص الأمير عز الدين سامة وابن السلار الملك العزيز على محاربة الملك الأفضل، والمسير الى الشام واستحثاه استحثاءً شديداً، وكذلك فعل غيرهما من أكابر الأمراء والملك الأفضل مع ذلك غافل عن صلاح حاله مستهتر بلهوه، وبينما هو على ذلك إذ اصبح ذات يوم مظهراً للتوبة، من غير سبب، ونادى بذلك، وأراق الخمر، ولازم الاعتكاف والصلوات والعبادات والصدقات ولبس القطن والكتان، ونهى عن المنكر، وأمر بالمعروف، وجالس الفقراء، وأكلهم وبالغ في التقشف الى ان صار يصوم النهار ويقوم الليل.

### سنة احدى وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وردت الاخبار الى دمشق بعزم السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب مصر على قصد دمشق وحصارها، فأشار العقلاء على الملك الأفضل بمراسلة اخيه الملك العزيز واستعطافه وملاطفته، وأشار عليه وزيره الجزري بأن يتوجه الى عمه الملك العادل، ويستنصر به ويستنجده على أخيه الملك العزيز، فأصغى إليه ومال الى قوله، ورحل من دمشق لأربع عشرة ليلة مضت من جمادى الأولى في خواصه متوجها الى الرقة، فتلقيه عمه السلطان الملك العادل رحمه الله

بصفين، فسأله الملك الأفضل المعاضدة والمساعدة، وان يصير معه الى دمشق ليمتنع أخوه من قصده، فأجابته الملك العادل الى ذلك، وسار من صفين متوجها الى دمشق، وكان دخوله اليها ليلية بقيت من جمادى الآخرة ومضى الملك الأفضل الى حلب مستنصرا بأخيه الملك الظاهر، فتحالفا على الاتفاق والمساعدة.

ثم توجه الملك الأفضل الى حماه فأضافه صاحبها الملك المنصور وتحالفا، ثم صار الى دمشق فدخلها وأقام بها هو وعمه الملك العادل رحمه الله، متوافقين متعاضدين.

ورأى السلطان الملك العادل من قبح سيرة الملك الأفضل، وسوء تدبيره ما اشتدت كراهيته له، وكان ينهاه عن أفاعيله فلا ينتهي، ويعظه فلا يتعظ. ولم يأل الملك العادل رحمه الله جهده في الذب عنه، ودفع ما يقال فيه، فلم يجد ذلك كله ولا أثر شيئاً.

ولما تناول ذلك وكثر تغير عليه رحمه الله وتنكر، وظهر ذلك عليه، وكنتم الملك الأفضل سببه، وصار الملك الأفضل تحت يد الملك العادل وتحكمه، متصرف فيه أمره ونهيه، فنفذت فيه سهام الملك العادل، وعلم أن ملكه صائر إليه لا محالة، فكاتب الأمراء ولاطفهم واستمالهم.

وكانت الأمراء الأسدية مائلة الى عثار الأمراء الصلاحية، مؤثرة بوارها وهلاكها، وكان السبب في ذلك تقدم الصلاحية عليهم عند الملك العزيز، فاستمالهم الملك العادل، وكاتبهم سرا، وكاتب الملك العزيز بالتخويف والتحذير منهم، وكانوا إذا ركبوا الى خدمة الملك العزيز رأى التنكر في وجوههم منه، ورأوا منه مثل ذلك، فتنافرت القلوب، وتم للملك العادل في تدبيره ما أراد.

ولما اطلعت الأمراء الأسدية على نفرة الملك العزيز منها خافوه،

وحسنوا للأكراد مخالفتهم، وكان أميرهم المقدم عليهم أبا الهيجاء السمين، فوافقوه سرّاً على المصير الى الملك العادل، والملك الأفضل، وأن يقاتلوا معها الملك العزيز ويحاربوه، وخوفوه إن لم يفعل ذلك أن تفسد الصلاحية عليه قلب الملك العزيز، ويكون ذلك مؤدياً الى هلاكه، فحالفهم هو ومن تبعه من الأكراد على ذلك.

ولما عيد الملك العزيز عيد الفطر بمصر توجه يريد الشام لحصار دمشق وتملكها، فحين بعد عن الديار المصرية فارقه أبو الهيجاء السمين والأكراد والمهرانية والأسدية، ولحقوا بالملك العادل، وذلك ليلاً لأربع خلون من شوال، وأصبح الملك العزيز في قلة من العدد فرجع الى مصر على طريق اللجون والرملة، وخاف من بقية الأسدية الذين معه الاقتداء بمن فارقه وأن يكونوا عيناً لهم، وكان من الأمور المولدة للاضطراب أن الملك الظاهر صاحب حلب كان لما صالح عمه السلطان الملك العادل وأخويه الأفضل والعزيز، شرط أن يكون الملك المنصور صاحب حماه والأمير عز الدين بن المقدم صاحب بارين، والأمير بدر الدين دلدردم صاحب تل باشر ومن معه من الياروقية في خدمته، ووقع الحلف على ذلك.

وكان الملك الظاهر قد اعتقل بدر الدين دلدردم بذنب نسبه اليه، واعتقل معه جماعة من أهل بيته ومضى الى تل باشر فحاصرها فلم يقدر عليها، فلما اجتمع الملك العادل بالملك الظاهر شفع في دلدردم وأهل بيته، وضمن له أنهم يكونون في خدمته، فشفع الملك الظاهر عمه فيهم وأفرج عنهم، وعاد من حصار تل باشر، واستصحبهم الملك العادل ليكونوا في نجدته.

فلما صار الملك العادل بدمشق وجرى ما ذكرناه من استمالته أمراء

مصر ومكاتبتهم استخدم بدر الدين دلدرم وأصحابه لنفسه، واقتطعهم عن الملك الظاهر.

وكان الملك المنصور صاحب حماه، قد حلف لابن عمه الملك الظاهر على البلاد التي في يده، وهي: حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، وزاده الملك الظاهر جبلة واللاذقية وبلاتنس، وبكسرايل، وصهيون، وحلف له على ذلك كله، وأنه يستخلص هذه البلاد التي وهبها للمك المنصور ممن هي في يده، وإن احتاجت إلى حصار حاصر، فلما جرى من اضطراب الحال بين الملك العزيز والملك الأفضل وعمهما الملك العادل ما وصفناه، خاف الملك المنصور، والأمير عز الدين بن المقدم من اجتماع الملك الأفضل والملك العادل، فوصلت كتبهما إلى الملك العادل بالاعتصام به، والتمسك بخدمته، وفارقا الملك الظاهر، فوافقهما الملك العادل وتحالفوا على ذلك.

ولما رأى الملك الظاهر أن عمه الملك قد استجلب إليه من كان في خدمته، كاتب أخاه الملك العزيز يستحثه على الخروج إلى الشام، ومقابلة الملك العادل والملك الأفضل، فخرج من مصر كما ذكرناه، وفارقته الأسدية والمهرانية وغيرهم وصاروا إلى الملك العادل، وعاد العزيز إلى مصر كما سبق ذكره لقلعة عدده، وحرص أبو الهيجاء السمين والأسدية الملك العادل على قصد مصر وأخذها، وهو نوا عليه أمر الملك العزيز.

قصد الملك العادل والملك الأفضل مصر: فتحالف الملك الأفضل وعمه الملك العادل على قصد مصر وتملكها، وإن يكون للأفضل الثلثان وللملك العادل الثلث، وكان ذلك سراً، ولم يصح ولم يتثبت وإنما حدس وظن.

ثم رحل السلطانان العادل والأفضل بجموعهما قاصدين الديار المصرية، واستخلف الملك الأفضل بدمشق أخاه قطب الدين موسى،

وحرصت الأسدية على أن تسبق الملك العزيز الى الديار المصرية ليمنعوه منها فلم يقدروا على ذلك، واجتهدوا فلم يدركوه.

وسر السلطان الملك العادل بوصول العزيز واستقراره بمصر، لأنه في الباطن لم يكن من رأيه محاصرة الملك العزيز ولا أخذ مصر، وإنما قصده خوفا من شولة (١٥) الأمر ان لم يوافقهم على قصده وحربه أن يصيروا الى الملك العزيز ويستولوا على الديار المصرية، ولا يبقى للعزيز معهم إلا مجرد الاسم، لحدائثة الملك العزيز ووصغر سنه، وعدم تجربته للأمر، فكان يصعب انتزاع مصر من أيديهم، فأجابهم الى قصدهم وقال في نفسه: إن غلب القوم الملك العزيز فمصر لي وللملك الأفضل، وإلا فهي للملك العزيز على مانوثره، فكان هذا رأيه، غير أنه أبطنه وكتمه، فسار بجموعه الى مصر، ونزلوا على بلبيس محاصرين لها، وكان بهامن الأجناد الصلاحية والعززية خلق كثير.

وكان نزول الملك العادل والملك الأفضل عليها في وقت زيادة النيل، وكانت الأسعار غالية، والعلف معدوم، ومنعت الزيادة من نقل المؤن والعلوفات إليهم، فغلت الأسعار، وارتفعت أثمانها، وبذل الملك العزيز الأموال واستخدم الرجال وحصن البلاد.

وقوع الاتفاق بين الملك العادل وابني أخيه العزيز والأفضل: ثم ندم الملك العادل على ما فعل، وكذلك الأسدية، وأخذوا في إصلاح الأمر وتلافيه، وبعث السلطان الملك العادل الى القاضي الفاضل رحمه الله يستدعيه ليستشيره، فامتنع حتى أذن له السلطان الملك العزيز، فخرج الى الملك العادل فاحترمه غاية الاحترام واستشاره فيما يفعل، فأشار بصلاح ذات البين فاصطلحوا ووقع الاتفاق، وعفا الملك العزيز عن الأمراء الأسدية وطيب قلوبهم ورد إليهم اقطاعاتهم وأجازهم وحلف لهم وحلفوا له، وحلف كل من الملوك الثلاثة: الملك العادل والملك

الأفضل والملك العزيز لصاحبه، وتوثقوا بالايان، وعادت الأسدية الى خدمة الملك العزيز، وعاد الملك الأفضل الى دمشق ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين، وكان قد ولاه بيت المقدس.

وأقام السلطان الملك العادل بمصر، واستوطن القصر، وأخذ في اصلاح الديار المصرية جندها وأرباعها وضيعاتها، وأظهر من محبته لابن اخيه الملك العزيز وشفقته شيئا كثيرا، وقام بأموره كلها صغيرها وكبيرها.

### سنة اثنتين وتسعين وخمسة:

في هذه السنة وصل السلطان الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر الى دمشق، وكان دخوله اليها في غرة المحرم. وفي هذه السنة خرج السلطانان الملك العادل والملك العزيز متوجهين من الديار المصرية الى دمشق لأخذها من الملك الأفضل، وكان السبب في ذلك انه اتصل بالملك العادل أخبار الجزري وزير الملك الأفضل، وفساد دولة الملك الأفضل بسوء تدبيره وكثر شاكوه، وقل شاكروه، واختلت الامور بذلك غاية الاختلال، وتخوف الملك العادل اضطراب المملكة بسبب ذلك، وأداء ذلك الى مايكره، فحملته الحمية على الخروج لتمهيد البلاد، وضبط الأمور وإزالة ماعرض من المفاسد، فسار الملك العادل والملك العزيز من مصر، وقد امتلأ الفضاء بعساكرهما كثرة، وصارا الى الدواروم وغزة فنزلا بها.

وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد بعث أخاه الملك الزاهر محيي الدين داود بن الملك الناصر الى مصر لإصلاح أحوالهم، وبعث أيضا قاضي القضاة بهاء الدين يوسف بن شداد رحمه الله، ولما رجعا من مصر اجتازا بدمشق وأخبرا الملك الأفضل بعزم الملك العادل والملك العزيز

على قصده، فضاق بذلك ذرعا، وأشار عليه عقلاء أهل دولته بملاطفة أخيه وعمه ومكاتبتهما، إلا وزيره الجزري فإنه بجهله أشار بمقابلتها ومقاومتها، وقال له: إن دمشق حصينة لاترام وأهلها يحبونه، وكذلك أشار عليه أخوه الملك الظافر خضر ابن الملك الناصر وقال له: لاتحزن فالباديء أظلم والمسلم الى الله اسلم.

وتولى الملك الظافر تهيئة أسباب الحصار واستشكر من العدد والعدة، ووافت رسل الملك الظاهر الى اخيه الملك الأفضل بالصبر والمصابرة، ووعده بالمؤازرة والمظاهرة والنجدة والمساعدة، وبعث الملك الأفضل الأمير فلك الدين أخا الملك العادل رسولا الى السلطانين الملك العزيز، والملك العادل يدعوهما الى الصلح فأجابا بشروط التماسها.

وعاد فلك الدين الى دمشق مسرورا بالتثام الشمل واذا الجواب قد عاد بأن الملك الأفضل امتنع من الصلح وأنه لايجيب الى ما اشترط، وانه قد سور بلده وخندقه، فعجب الملك العادل والملك العزيز وتألما له، وسارا من منزلتهما الى دمشق.

بمنازلة الملك العادل والملك العزيز دمشق: فوصلا اليها ونازلاها. / وأقاما شهرا لم يحدثا قتالا ولا احراقا ولا افسادا، رجاء وقوع الألفة وانتظام الشمل، وأكابر الدولة يشيرون على الملك الأفضل بالخروج الى عمه وأخيه واستعطافهما، فيأبى ذلك ويعمل برأي وزيره وأخيه الملك الظافر، فلما رأى الأكابر ذلك فسدت نياتهم وكاتبوا الملك العزيز سرا واصلحوا أمورهم معهما، ووصلت كتبهم اليهما بتعجيل القتال وانتهاز الفرصة.

استيلاء الملك العزيز على دمشق: فركب الملك العادل والملك العزيز، وضرب البوق، وقصدا دمشق وذلك لأربع بقين من رجب فما ردهم راد

ولاصدهم صاد الا الملك الظافر خضر بن الملك الناصر فإنه قاتلهم فهزموه.

ووصل الملك العزيز الى الميدان الأخضر، ووصل الملك العادل الى باب توما ففتحه له أمير كان عليه، فدخل الملك العادل وأصحابه منه ومن باب شرقي، ودخل الملك العزيز من باب الفرج وبات عند عمته الحسامية، وبات الملك العادل في دار عمه أسد الدين.

ولما دخل الملك العزيز خرج اليه أخوه الملك الأفضل فتلقاها، وأقام الملك العزيز بمخيمه في الميدان الأخضر الى أن انتقل الملك الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، ونزل بمسجد خاتون وما يجاوره من الدور، ومعه وزيره الجزري خائفا على نفسه.

ووقعت واقعة عجيبة لو أحسن فيها الملك الأفضل التدبير لحمد العاقبة لكنه فرط فجنى ثمرة تفريطه، وهي أنه كان استقر من الملك العادل والملك العزيز أن الملك العزيز يقيم بدمشق ويكون الملك العادل نائبا عنه بمصر، فلما فتحت دمشق ندم الملك العزيز على ما قرر وخاف من استيلاء الملك العادل على الديار المصرية، فبعث الى الملك الأفضل سرا يعتذر اليه ويشير عليه بما هو عين المصلحة، وهو أنه إذا طالبناك فامتنع ولا ترض الا بالسكة والخطبة لك، فإني أجيبك اليهما ولا أمنعك منهما وأعطيك ماتريده، ويكون امتناعك لي عذرا لي عند عمي، فأظهر الملك الأفضل هذا السر لأصحابه وأفشاه، وقالوا: لا تخدع بهذا القول واطلع عمك الملك العادل عليه فإنه كأبيك في الشفقة، فأرسل الملك الأفضل الى عمه فعرفه بذلك فقامت قيامته، وعتب بسببه على الملك العزيز، وقال له: أنا أبني وأنت تهدم فأنكر ذلك الملك العزيز، وحلف على بطلانه.

وبعث الملك العزيز الى الملك الأفضل فأزعجه بالعتب والخصومة

وأخرجه من دمشق الى صرخد فسكنها بعائلته، وكانت بصرى بيد الملك الظافر فأخذها منه أخوه الملك العزيز مقابلة له على مافعله من المقاتلة والمحاربة، فسار الى أخيه الملك الظاهر فأكرمه.

استيلاء السلطان الملك العادل رحمه الله على دمشق: ولما ملك السلطان الملك العزيز دمشق جلس في دار العدل، فكشف المظالم، وأبطل المكوس، فظن الناس أنه يقيم بدمشق ويستوطنها فلم يشعروا به إلا وقد أزمع الرحيل فبرز الى مسجد القدم، ثم الى الكسوة، وقرر عمه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب رحمه الله في دمشق وبلادها، وسلمها اليه، فملكها السلطان الملك العادل رحمه الله، وأحسن القيام فيها، وكان أحق بها وأهلها، لما كان رحمه الله مختصا به من حسن السياسة وصواب التدبير، فابتهجت به الممالك الشامية، وأشرق نورها واستبشرت بتملكه الرعايا، وتضاعف سرورها، لازالت الرحمة مضاعفة له من الرحيم الغفور، ولابرحت ذريته ملوك هذه الأمة الى يوم البعث والنشور أمين.

ثم سافر السلطان الملك العزيز متوجهاً الى الديار المصرية وودعه عمه السلطان الملك العادل وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان وكانت مدة ملكه لدمشق عشرين يوماً.

ولما عاد السلطان الملك العادل الى دمشق بعد وداعه لابن أخيه السلطان الملك العزيز، قرأ منشوره على رؤوس الاشهاد، وأبقى الخطبة والسكة للملك العزيز، وأظهر أنه نائبه.

### سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وردت الأخبار بعزم الفرنج خذلهم الله على قصد بيروت، فخرج السلطان الملك العادل رحمه الله من دمشق في عساكره، فخيم قريبا من صور، وبعث الى بيروت من تولى اخراب مدينتها دون قلعتها ليكفي المسلمون عاقبة أمرها، فخربت المدينة حتى بقيت كأن لم تكن، وأمر بتحسين قلعتها فتولى ذلك الأمير عز الدين سامة، وبالغ في تحصينها، وترك فيها جماعة من مماليكه وأصحابه.

استيلاء الفرنج على بيروت: ولما انفصل عز الدين سامة عن بيروت، خافت الجند المرتبون بها من الفرنج، فخرجوا منها منهزمين، ووصلت الفرنج فملكوها، واستولوا عليها، وعزموا على قصد جبلة واللاذقية، فبعث السلطان الملك العادل الى ابن أخيه الملك الظاهر صاحب حلب يعلمه بما عزمتم الفرنج عليه، فوصلت كتبه بأنه قد جمع خلقاً من التركمان، وبرز لحفظ البلاد الساحلية، وطلب من عمه نجدة ليقوى بهم على العدو.

وأما الفرنج فإنهم رحلوا من بيروت الى صيدا، فنزلوا عليها، ونزل بعضهم على تبين فحاصروها وضايقوها مضايقة شديدة، فسار السلطان الملك العادل الى تبين، وأقام بها في مقابلة الفرنج، وكتب الى ابن أخيه السلطان الملك العزيز يخبره بذلك، فبرز من مصر وجهز من عساكره مقدمة، وسار في إثرها بجحافل، ثم رحلت الفرنج خذلهم الله عن تبين، ورجع الملك العزيز الى مصر.

## سنة أربع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنة سار السلطان الملك العادل رحمه الله الى الشرق، ونازل حصن ماردين وصاحبها يومئذ أرتق بن ارسلان بن ايل غازي بن أرتق، فملك السلطان العادل الرض بعد حصار شديد وقتال كثير، ثم شرع في حصار القلعة وذلك في العشر الاوسط من ذي الحجة، ولم يزل محاصرا لها الى ان خرجت السنة.

وفي هذه السنة كانت وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن رحمه الله، وكان ملكا جليلا عظيم القدر، فقام بالملك باليمن بعده ولده الملك المعز اسماعيل بن طغتكين، بن أيوب.

## سنة خمس وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك العادل رحمه الله محاصر قلعة ماردين ومضايقتها وقد اشرف على اخذها.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، وحديث ذلك انه عزم على المضي الى الاسكندرية للاشراف على احوالها ثم المضي منها الى دمياط، وكان ذلك في شهر ذي الحجة من السنة الماضية، فاتفق انه خرج من مخيمه عازما على التصيّد في الفيوم ثم العودة الى مخيمه، والرحيل بعد ذلك الى الاسكندرية فتوجه الى الفيوم فوصله في مستهل المحرم من هذه السنة ونزل بقرية يقال لها ذات الصفا، فاقام بها متصيّدا الى سابع المحرم فرحل منها وهو يتصيد في طريقه فاتفق ان ذئبا خرج فركض في اثره فعثر به فرسه فسقط، ثم ركب وهو محموم، فعاد الى مخيمه وقد قويت

حماه، ودخل القاهرة في عاشر المحرم فبقي مريضاً الى ليلة الحادي والعشرين من المحرم فانتقل فيها الى رحمة الله ورضوانه.

### سيرته رحمه الله

كان رحمه الله ملكاً كريماً رحيماً حسن الأخلاق طيب الأعراق، شجاعاً، حسن العقيدة جميل الطوية، شديد الخوف من الله تعالى، محباً للعلماء، متكثراً بالفضلاء، كثير الاحسان اليهم والاستحضر لهم الى مجالسته، واستماع كلامهم، والعمل بما يشيرون به، سريع الانقياد الى الخير، كثير البذل مفرط السخاء تغمده الله برحمته، واسكنه الفردوس من جنته.

ولما توفي اجلس في السلطنة بمصر ولده الملك المنصور محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب، واجتمعت عليه كلمة الأمراء، وامتنع عماه الملك المؤيد، والملك المعز من الحلف إلا بشرط أن يكون الملك المؤيد أتابكه.

وعزم الملك المؤيد على المخالفة، واشترى اسلحة في الباطن فعقدت الأمراء مجلساً وحضر فيه: الملك المؤيد، والملك المعز، والملك الظافر، ثم طولب الملك المؤيد بالحلف، فامتنع فأغلظ له أخوه الملك الظافر وتهده، فحلف كارهاً، وحلف أخوه الملك المعز، واستتب الأمر، واجتمعت الكلمة على أن يكون مدبر الأمر الأمير بهاء الدين قراقوش الى أن يصل السلطان الملك العادل فيفعل ما يراه.

## استيلاء الملك الأفضل على الديار المصرية

ثم إن الأمراء كاتبوا الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك الناصر صلاح الدين ليصل اليهم، ويرتّب أتابكا لابن أخيه الملك المنصور ابن الملك العزيز. فساق الملك الأفضل من صلخد الى مصر سَوَقاً حثيثاً، ودخل القاهرة لسبع مضيّن من ربيع الأول، فحلفت له الأمراء، ولم يبق لولد الملك العزيز معه إلا بالإسم، ومعنى السلطنة له.

ولما استقرت تتقدّم الملك الأفضل بالديار المصرية كتب الى عمه السلطان الملك العادل، وهو على محاصرة قلعة ماردين يعزيه بالملك العزيز ويخبره أنه قد صار الى مصر، واستقل بتدبير أحوالها حفظاً لدولة ولد الملك العزيز.

## قصد الملك الأفضل والملك الظاهر دمشق وحصارهما لها

ثم إن الملك الأفضل والأمراء اتفقوا على قصد دمشق وأخذها لغية الملك العادل عنها، وكاتبوا الملك الظاهر بذلك، فوافقهم وصار معهم، وأيضا الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماه.

وتوجه الملك الأفضل من مصر بعساكره طالباً دمشق، ووصلت الأخبار بذلك الى السلطان الملك العادل رحمه الله، وهو على محاصرة قلعة ماردين، فرتّب على حصارها ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد، سار الى دمشق محمّلاً ليسبق الملك الأفضل إليها، فوصلها لإحدى عشرة

ليلة مضت من شعبان، وذلك قبل وصول الملك الأفضل إليها بيوم واحد.

ونازلها الملك الأفضل في ثالث عشر شعبان وفي رابع عشر زحف إليها، وكانت الغلبة له أولاً، وكاد أن يملك البلد، وفتح له باب السلامة مخامرة من الأمير الذي كان يتولاه، فدخل جماعة من أصحاب الملك الأفضل المدينة من جملتهم الفقيه مجد الدين أخو الفقيه عيسى، ثم خرجوا من باب الفراديس ولم يحصل غرضهم، والسعادة إذا كانت مقبلة لم يضر صاحبها شيء، ولو اتفق أهل الأرض قاطبة عليه.

وفي شعبان وصل الملك الظاهر من حلب، واتفق مع أخيه الملك الأفضل على حصار دمشق، ثم وصل المجاهد صاحب حمص وعسكر من عند الملك المنصور صاحب حماه نجدة للملك الأفضل، ونازل الملك المنصور في شهر رمضان حصن بارين وصاحبه الأمير عز الدين ابراهيم ابن شمس الدين بن المقدم، وكان في خدمة الملك العادل ومن أصحابه، فنصب عليه المجانيق، وحاصره بقية شهر رمضان وشوال وذو القعدة، وفتح ليلة بقيت من ذي القعدة، بعد أن جرح الملك المنصور جراحة مشخنة.

### سنة ست وتسعين وخمسة

دخلت هذه السنة والملك الأفضل نور الدين وأخوه الملك الظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها عمهما السلطان الملك العادل رحمه الله، ولما كان اليوم العاشر من شهر ربيع الأول وصل السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل بمن معه من العساكر الى دمشق، فاستظهر به أبوه السلطان الملك العادل، وضعف بذلك قلب الملك الأفضل والملك الظاهر، ثم تأخرا عن دمشق . رحلة، ثم رحل

الملك الظاهر جريدة الى حلب في البرية، وذلك لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، لشغب واختلاف وقع بينه وبين أخيه.

ولما رحل الملك الظاهر رتب السلطان الملك العادل ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائباً بها، وأعاد ولده الملك الكامل في عساكره إلى حران، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله متبّعاً لابن أخيه الملك الأفضل، فكان كلما رحل الملك الأفضل من منزلة، نزها السلطان الملك العادل.

### كسرة الملك الأفضل بالسايح

ثم التقى العسكران عسكر الملك العادل وعسكر الملك الأفضل بموضع يقال له السايح، وكانت أكثر العساكر الأفضلية مخامرين على صاحبهم في الباطن، فلما وقع القتال انهزموا وولوا الأدبار، وركب الملك العادل أقفيتهم الى أن وصل البركة فنزل بها مخيماً ثمانية أيام، والرسل تردد بينه وبين ابن أخيه الأفضل.

### استيلاء الملك العادل على مصر

وآخر الأمر أنه تقرر أن السلطان الملك العادل يملك مصر، وينعم على الملك الأفضل بميفارقين وحاني وجبل جور وغيرها.

ثم دخل السلطان الملك العادل القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر، واستتب له الأمر، وصفت له المملكة بالديار المصرية

ودمشق وأعمالها، وتوجه الملك الأفضل بأهله الى صرخد، فأقام بها وبعث نوابه ليتسلموا ديار بكر فتسلموا ماوقع الاتفاق عليه، إلا ميافارقين، فإن الملك الأوحى نجم الدين أيوب بن الملك العادل لم يوافق على تسليمها إليه، وظن الملك الأفضل أن ذلك بمواطأة من عمه، فتوجه الى حلب مستصرخاً بأخيه الملك الظاهر.

ولما ملك السلطان الملك العادل مصر. كرهت الأمراء الصلاحية ذلك، وشق عليهم خروج الأمر عن ولد الملك الناصر صلاح الدين، فكاتبوا الملك الأفضل سراً، ووعدوه القيام معه وبذل الجهد في نصرته.

وكان الأمير عز الدين سامة أميراً على ج في تلك السنة، فلما عاد اجتمع به الملك الأفضل وأخبره بمكاسة الامراء له، واستحلفه فحلف له كرهاً، وكتب الى الملك العادل يخبره بموافقته الأمراء الصلاحية للملك الأفضل ومكاتبتهم له، فشكره العادل على ذلك

### سنة سبع وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملك العادل بالديار المصرية متملك لها، وبدمشق ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائبا عنه، والملك الأفضل بحلب عند أخيه الملك الظاهر مستصرخاً به على عمه العادل، ووصلتها كتب الأمراء الصلاحية يستحثونها على قصد دمشق، وأخذها ويعدون بها بالنصرة والمعاضدة، ومن جمعتهم الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير زين الدين قراجا، والأمير عماد الدين ابن المشطوب وهيمون القصري، وغيرهم، وتحالف هؤلاء الامراء سراً على رد الأمر الى أولاد الملك الناصر وتمليكهم ماأخذ منهم وشاركهم في سرهم الأمير عز

الدين سامة وأوهمهم أنه من جملتهم، وجعل يكاتب السلطان الملك العادل بأسرارهم وما يتجدد لهم.

ثم سار الملك الظاهر الى منبج وصاحبها شمس الدين عبد الملك بن شمس الدين بن المقدم، وكان في خدمة الملك العادل، فتسلمها وقبض على صاحبها شمس الدين، ثم سار الى قلعة نجم، وكانت لشمس الدين أيضاً فتسلمها، وراسل الملك المنصور صاحب حماه، وطلب منه أن يكون معه فلم يجبه الملك المنصور الى ما طلب، وأبى إلا الانتفاء الى السلطان الملك العادل، والاستمرار على طاعته ومتابعته، فسار الملك الظاهر الى المعرة واستولى على ما كان بها من الخواصل ثم مضى الى كفرطاب فنزل بها وسير الى نائب شمس الدين بن المقدم بأفاميه يتهدده ويتواعده إن لم يسلم إليه الحصن فلم يفعل، فسار الملك الظاهر إلى أفامية فنزلها واستحضر شمس الدين بن المقدم، وأمر به فضرب ضرباً مبرحاً بمراى من أهل الحصن ليسلم نوابه الحصن، فلم يجد ذلك شيئاً، فرتب على حصارها عماد الدين بن المشطوب، ثم سار الى حماه فنازلها مدة، ثم وقعت بينه وبين صاحبها الملك المنصور هدنة على شيء بذله له الملك المنصور، أن الملك الظاهر والملك الأفضل إذا أخذوا دمشق كان الملك المنصور في خدمتهما.

### منازلة الملك الظاهر والملك الأفضل دمشق

ثم رحل الملك الظاهر ومعه أخوه الملك الأفضل الى دمشق فنازلاها، وبلغ ذلك السلطان الملك العادل وهو بالديار المصرية، فسار منها الى نابلس فأقام بها.

وبينما الملك الظاهر والملك الأفضل محاصران لدمشق إذ قفز الأميران

فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، وكانا في عسكر الملك الظاهر الى الملك العادل، فتناقصت عند ذلك أمور الملك الظاهر والأفضل.

وكتب الملك العادل في السر أكابر الأمراء الذين معهما، فوعدهم السلطان الملك العادل، وسوفهم، واصلح قلوبهم له وأفسدها على الملك الظاهر والملك الأفضل.

### سنة ثمان وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملك الأفضل والظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، ووالده العادل نازل بنابلس، وقد تحذل أصحاب الظاهر والأفضل وضعفت شوكتها، وكلّ حدهما، ووقع الخلفُ بينهما، وذلك أن الملك الظاهر قال سرّاً: إن أخذت دمشق أخذتها لنفسي ولا أعطيها لأخي الملك الأفضل، فراسل الملك الأفضل عمه السلطان الملك العادل ما كان عينه له من البلاد الشرقية، وإن يعطيه في كل سنة مئة الف دينار، نصفها عيناً، ونصفها عروضاً، فتحالفا على ذلك سرّاً، وشاع في العسكر أمر الصلح من غير وقوف على حقيقة تفصيله فتخاذلوا وضعف أمرهم.

ثم رحل الملك الظاهر لما رأى اضطراب الأحوال وذلك في أول محرم ومعه فارس الدين ميمون القصري، وعماد الدين بن المشطوب، وسراستقر. ورحل الملك الأفضل الى الشرق، ودخل السلطان الملك العادل رحمة الله دمشق، وكان يوماً مشهوداً. وكان الملك الفائز ابراهيم ابن الملك العادل قد تسلم منبج في غيبة الملك الظاهر، فتسلمها الملك الظاهر لما عاد، واقطعها لعماد الدين بن المشطوب، وتسلم أفاقيه من نواب شمس الدين بن المقدم على عوض اقطاعها.

## سنة تسع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله من دمشق الى حماه فنزلها، وجرت بينه وبين ابن أخيه الملك الظاهر مراسلات آخرها أنه وقع الصلح بينهما وتحالفا على أن يكون للسلطان الملك العادل دمشق والسواحل وأعمال البيت المقدس، والديار المصرية، ومابيده، وبيد أولاده من بلاد الشرق، وأن يكون للملك الظاهر مدينة حلب وأعمالها، وللملك المنصور حماه والمعرة، وسلمية، وبارين، وللملك المجاهد أسد الدين حمص والرحبة وتدمر، وللملك الأجد بعلبك وأعمالها.

ولما وقع الاتفاق على ذلك عاد السلطان الملك العادل الى حمص ونزل على بحيرة قدس وعين لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى حرّان والرّها، ولولده الملك الأوحده نجم الدين أيوب ميفارقين، ولولده الملك المعظم شرف الدين عيسى السواحل وأعمال البيت المقدس، ولولده السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد الديار المصرية.

وكان في اليمين المقترحة على الملك الظاهر ان يقطع خبز عماد الدين ابن المشطوب ولايستخدمه، فقطع الملك الظاهر خبزه، فصار الى السلطان الملك العادل فلم يستخدمه، وقال تخدم بعض أولادي، فقصد الملك الأوحده فلم يستخدمه واستخدمه الملك الأشرف وحلف له على أربعائة فارس وخبزها من بلاد ماردين إذا فتحها، فقصدها عماد الدين، واستحضرها الملك الأفضل نور الدين وأخذوا رأس عين من صاحب ماردين، وسلمها ابن عمه الأشرف إليه، وساروا الى ماردين، فبعث صاحب ماردين الى الملك الأشرف خمسين الف دينار ليرحل عنه، وعاد الى حران وأعطى الملك الأفضل جملين، سم أخذ منه كل موضع وقع التقرير عليه، ولم يترك له غير سميساط، فأقام بها الى أن مات.

وفي هذه السنة كان مقتل الملك المعز إسماعيل بن سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن، وكان قد ادعى الخلافة، وتسمى بأمر المؤمنين، وزعم أن نسبه ينتهي الى بني أمية، وجرى له مع ممالك أبيه خبط كثير، وتحزبوا عليه، وآخر الأمر أنه وثب عليه جماعة من الجند، فحمل عليه أحدهم، وكان راكباً على بغلة وعليه ثياب الخلافة طول الكمّ قريباً من عشرين شبراً وسعته قريب من ستة، فنفرت البغلة ورمته فتحبط في ثيابه وأكمامه، فنزلوا إليه فقتلوه، ورفعوا رأسه على رمح وداروا به في بلاد اليمن وملكوا عليهم سيف الدين سنقر، مملوك سيف الاسلام، فجند الجنود وحشد الرجال وقصد من خالفه، فأعطي النصر عليه، وتمهدت له بلاد اليمن وقتل جماعة كبيرة من الأمراء.

وكان الملك المعز قد خلف ولداً صغيراً، فلقبه سيف الدين سنقر الملك الناصر، وخطب له بالسلطنة في بلاد اليمن، وتزوج أمه، وأظهر أنه أتاكه وحافظ دولته، فبقي كذلك مدة اربع سنين، ثم توفي سيف الدين سنقر، وخلف ولداً صغيراً من أم الملك الناصر بن الملك المعز، فتزوج بها بعد وفاة سيف الدين غازي بن جبريل أحد امراء تلك الدولة، وغلب على البلاد.

وبقي الملك الناصر مدة، ثم سمّ في كوز فقاع، فمات وبقي غازي ابن جبريل مدة بعد ذلك، ثم قتلته حمير وخولان وجماعة من العرب، وذلك لأنهم اتهموه بأنه هو الذي قتل الملك الناصر، فقتلوه به، وبقيت بلاد اليمن بغير سلطان.

وكانت أم الملك الناصر حاكمة على زبيد، فقصدتها الشريف عبد الله ابن عبد الله الحسني، وكان متغلباً على بعض تلك البلاد، فلم يظفر بطائل، ورجع الى بلاده، واتفق أنه قدم الحاج وفي جملتهم الأمير سليمان شاه بن سعد الدين شاهان شاه بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن

شاهان شاه بن أيوب بزّي الفقراء، فأعلمت به أم الملك الناصر فخلعت عليه وتزوجته، وسلمت اليه البلاد فملأها ظلماً وجوراً وفسقاً ونجراً.

وكتب الى السلطان الملك العادل رحمه الله كتاباً يقول في أول: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)<sup>(١٦)</sup>.

واهتم السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بأمره، فسير إلى اليمن ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب في ستمئة اثنتي عشرة وستمئة بعسكر، ففتح بلاد اليمن، وقبض على سليمان شاه وبعث به الى مصر تحت الحوطة فاعتقل بها، ثم أفرج عنه بعد مدة.

ودوخ الملك المسعود بلاد اليمن حتى أطاعه أهلها، وكان شجاعاً أبي النفس عالي الهمة، واعلم ان هذه الحوادث وإن وقع أكثرها بعد هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين فإنما قصد سياقة الحديث دعانا الى ذكرها كراهة أن يتبتر

### سنة ستمئة

في هذه السنة كانت كسرة المواصلة على يد السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن السلطان الملك العادل رحمهما الله، وحديث ذلك أنه خرج نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل الى قتال الملك الأشرف، ولما بلغ الملك الأشرف ذلك كتب الى والده الملك العادل، وكان نازلاً بخربة اللصوص يستشيره فيما يفعله، فكتب اليه يشير عليه بأن لا يضرب مع صاحب الموصل مصافاً وحدّره من ذلك غاية التحذير، وسار السلطان الملك الأشرف رحمه الله

الى دارا، فنزل بها واستدعى اخاه الملك الأوحى من ميافارقين، وصاحب آمد وصاحب الجزيرة، ورحلوا قاصدين باشزى<sup>(١٧)</sup> ووصل نور الدين الى باشزى بجموعة قبلهم، وبعث إلى السلطان الملك الأشرف رسولا يطلب منه المصاف.

ثم وقع القتال فحملت المواصلة على عساكر الملك الأشرف فزحزحتها قليلاً، وحملت عساكر الملك الأشرف بعد ذلك عليهم فكانت الهزيمة، وأباح الله تعالى الملك الأشرف أكتافهم فاستولوا عليهم قتلاً وأسراً، ودخل نور الدين الموصل هزيباً، ثم جرت بينه وبين الملك الأشرف مصالحات واتفاقات.

وقد كان الملك الأشرف رحمه الله مقرونة برياياته السعادة أين توجه، وكانت هذه الواقعة أول سعادته وعنوانها.

### سنة ثلاث وستمئة

في هذه السنة نزل السلطان الملك العادل رحمه الله على البحيرة بظاهر مدينة حمص، واستدعى ابن اخيه الملك المنصور صاحب حماه، وابن أخيه الملك الأمد صاحب بعلبك، ووصل عسكر آمد وسنجان وحلب، ودخل الساحل فأخرب القليعات وأحرق ونهب للفرنج شيئاً كثيراً.

### سنة أربع وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل الى دمشق، فأقام بها وأمر

بتجديد عمارة قلعتها، ووظف على كل ملك من ملوك أهل بيته وأكابر أمرائه برجاً، فعمروها بأموالهم خدمة له.

### سنة ست وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله الى سنجار، ومعه ملوك أهل بيته بعساكرهم فأقام محاصراً لها مدة طويلة ثم عاد عنها ولم يظفر منها بشيء، ودخر الله تعالى فتحها لولده الملك الأشرف، فإنه فتحها سنة سبع عشرة وستمئة، وبعد رحيل السلطان عنها سير ولده الملك الأشرف، وفي خدمته ابن عمه الملك المنصور صاحب حماه الى نصيبين ففتحها، واستولى عليها، وكانت لصاحب الموصل.

### سنة سبع وستمئة

في هذه السنة قبض السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل على الأمير عز الدين سامة واعتقله بحصن الكرك، ونازل حصنیه عجلون وكوكب، وكان قبل ذلك قد طلبها منه على أن يُعَوِّض عنها الفيوم من أعمال مصر فامتنع ففتح الملك المعظم حصنيه واستولى عليها.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحده نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك العادل بأخلاق، وكان قد استولى عليها وعلى حصونها ومعاقلها.

## استيلاء الملك الأشرف على أخلاط

وكان الملك الأوحده رحمه الله لما احتضر كاتب أخاه السلطان الملك الأشرف ليحضر عنده، فمضى إليه وأقام عنده مدة، فاتفق أن الملك الأوحده تعافى من مرضه، وتكامل برؤة. فودعه الملك الأشرف عازماً على العود، فأخبره منجم أخلاطى، كان عند الملك الأوحده بأن الملك الأوحده يموت لامحالة ونهاه عن المضي، فأقام اسبوعاً فمات الملك الأوحده في ذلك الاسبوع، فاستتب الملك بأخلاط للسلطان للملك الأشرف شاه أرمن موسى بن الملك العادل، وأقبلت السعادة له من كل جانب.

### سنة عشر وستمئة

في هذه السنة ولد السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وأمه خاتون ابنة السلطان الملك العادل.

### سنة ثلاث عشرة وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قدس الله روحه، وذلك لعشر بقين من جمادى الآخرة وعمره أربع وأربعون سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه بحلب احدى وثلاثين سنة.

سيرته:

كان رحمه الله ملكاً جليل القدر، حسن السيرة، عادلاً في رعيته، كثير الاحسان إليهم والمحبة واستجلاب قلوبهم، والتكثر بأمانتهم وأكابرهم،

حتى أنه كان إذا مرض أحد من أكابر أهل بلدة ومعمميهم عادة بنفسه وافتقده بالنفقات، ومتى عوفي من المرض خلع عليه.

وكان له سباط في شهر رمضان يحضره غالب فقهاء البلد، وكان في الأعياد يجلس في الهناء، ويسمع من الشعراء مدائحهم، ويمد سباطاً عظيماً، يحضره غالب الناس، ويخلع على الأعيان والأمراء وأرباب البيوتات.

ولما توفي الملك الظاهر رحمه الله عقد الملك بحلب لولده السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وعمره يومئذ ستان وكسر بوصية أبيه إليه في ذلك، وترتب أتاكاً له الأمير شهاب الدين طغريل خادم أبيه، فضبط المملكة، ونشر العدل، وأكثر من الاحسان الى الرعايا، وقام بحفظ مملكة الملك العزيز أحسن قيام.

## ذكر بدء ظهور التتر لعنهم الله

كان السلطان خوارزم شاه محمد بن السلطان خوارزم شاه تكش قد تملك ماوراء النهر، وكان هؤلاء الطائفة المعروفون بالتتر مقيمين بصحراء متاخمة بلاد الصين، يقال لها جين ماجين، فاتفق أنهم ملكوا من : بلاساغون، مدينتي طمغاج وكاشغر، فقويت شوكتهم بذلك، وكانت هذه البلاد متاخمة لسمرقند وهي يومئذ بيد خوارزم شاه، ف وقعت الحرب بينهم وبين خوارزم شاه مدة قبل هذه السنة، فقلت عندهم المؤن والنفقات ومنع خوارزم شاه من نقل شيء منها إليهم، فبعث ملك التتر واسمه جنكيزخان رسلاً ثلاثة، وصحبهم تجار منهم على خوارزم شاه، وبعث الى خوارزم شاه فأعلمه بهم، فبعث خوارزم شاه من قتلهم سوى رجل واحد، وأظهر خوارزم شاه أن ذلك وقع بغير أمره. ونهب متولي أطرار ماكان مع أولئك التجار، وكانوا أربعين تاجراً ومعهم مئة وخمسون فرساً عليها فضة نقرة لبيتاعون بها ما يحتاجون اليه من السلع والبضائع.

ولما بلغ ذلك ملك التتر بعث الى خوارزم شاه ينكر عليه هذا الفعل ويتهدده إن لم يبعث اليه بأولئك الرسل والتجار أحياء، فقطع خوارزم شاه أطراف رسله، وقال: مالكم عندي إلا هذا الفعل. فاجتمعت التتر في عالم لا يحصى، وقصدوا بلاد الاسلام وهؤلاء القوم كفار يعبدون الشمس، ولا يعتقدون صحة شيء من الشرائع، وقد ذكر أن عدة جمعهم كان يومئذ أربعمئة الف مقاتل، وافترقوا ثلاث فرق، فخرج خوارزم شاه في سبعين ألفاً فضرب مع ملك كاشغر، وهو احد ملوكهم مصافاً وكان عدة من معه أربعين ألفاً، فهزم أصحاب ملك كاشغر وأسر خوارزم شاه وقتله.

ثم طلب خوارزم شاه من ابن ملك التتر جنكيزخان أن يضرب معه مصافاً فامتنع وقال: مامعي أمر من والدي بذلك، فألح عليه خوارزم

شاه فاندفع ابن كشلو خان قدامه مسيرة ثلاثة أيام، ثم ردت التتر على خوارزم وأصحابه فهزموهم أقبح هزيمة، وطمعت التتر عند ذلك في البلاد الاسلامية، فبعثوا الى بخارى عشرة آلاف فارس فنازلوها وحاصروها حصاراً شديداً ثم فتحوها بعد ثلاثة أيام وبذلوا السيف في أهلها فأبادوهم وعصت القلعة عليهم خمسة أيام ثم فتحوها وقتلوا من كان بها وهدموها، وكان ببخارى من العلماء والأكابر ما لا يحصى كثرة، فذهب أكثرهم تحت السيف، ثم مضوا الى سمرقند فأخذوها بالسيف وقتلوا جميع اجنادها وعوامها وفقهائها، وهذه مدينة لم يكن بها وراء النهر مدينة أعظم منها.

وأما خوارزم شاه فإنه صار الى ترمذ، فاختلفت أصحابه، وتحالفوا على قتله لما رأوا من استيلاء الكفار عليه وغفلته عنهم، وعزموا على تملك شخص منهم يقوم بذب الكفار عن حوزة المسلمين، فاطلع خوارزم شاه على ما أجمعوا عليه، فانهزم الى نيسابور واتبعه أجناده يطلبون قتله، ثم انهزم الى همدان وهم في اثره، ثم انهزم منها وساق سوقاً حثيثاً في البرية فأدرسته منيته على شاطئ البحر فدفن هناك لأحسن الله عن الاسلام جزاءه، فلقد كان هلاك معظم بلاد الاسلام على يديه وبسببه، وقصد ولده جلال الدين منكبرتي بن محمد مدينة خوارزم فلم يفتح له بابها، فعاد الى نشاور، وأقام بها أياماً فالتقاه التتر فكسروه كسرة قبيحة، وأخذوا ما كان معه، وانهزم الى هراة وهم في أثره فمضى الى غزنة فلقبه رجل من أهل بلخ فسأل جلال الدين أن يعطيه العسكر ليصاف بهم التتر فأعطاه إياه، فصاف البلخي التتر فهزموهم، فحسده جلال الدين على ذلك فقتله، فسلط الله تعالى الكفار على جلال الدين فهزموه الى ما وراء السند، واستولى الكفار على بلاد العجم، واستباحوا أهلها قتلاً وأسراً، فهذا ما بلغني من ذكر ابتداء أمرهم.

ثم إن جلال الدين بعد ذلك عاد الى بلاد العجم وجمع خلقاً عظيماً،

ثم إنه قصد أخلاط وملكها علي ما سنذكره إن شاء الله تعالى، فقصدته السلطان الملك الأشرف وكسره وفلّ جمعه، ثم كانت بعد ذلك بينه وبين التتر حروب كان الظفر فيها للتتر، وانهم من جلال الدين نحو آمد، ودياربكر، فقيض الله من اغتاله وأراح المسلمين منه، فإنه وأياه كانا على الناس شراً من التتر لما كان يبدو منهما من الظلم الفاحش وسفك الدماء، وانتهاك الحرمات وإخراب البلاد واهلاك الحرث والنسل.

ولم تزل شوكة التتر تعظم وأمرهم يتفاقم إلى أن ملكوا أصبهان، وكانت قد امتنعت عليهم مدة طويلة، فقتلوا من أهلها مقتلة عظيمة، ثم قصدوا إربل فحاصروها، ثم ملكوها وقتلوا جميع أهلها، ثم قصدوا العراق فقام الخليفة الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعز الله نصره بقتالهم، وتشمر لحرهم والأمر على ذلك إلى وقتنا هذا، فنسأل الله تعالى أن يعجل دمارهم وهلاكهم، وينزل جنود النصر على مولانا أمير المؤمنين وأن يحسم بطول بقائه مادة الكافرين آمين.

ولولا خشية خروج هذا المختصر عن حدّه لذكرنا أمورهم جميعها، لكننا كرهنا ذلك لطولها، ولأنها أيضاً معلومة لقرب العهد بها.

### سنة خمس عشرة وستمئة

في هذه السنة خرج سلطان الروم عز الدين كيكافوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان طالبا بلاد الشام ليملكها، وظهر أنه إنما خرج نجدة للملك الأفضل نور الدين ابن الملك الناصر صلاح الدين، فوصل إلى تل باشرو، وكانت بيد الأمير بدر الدين دلدردم الياروقي فنازلها وفتحها وتسلمها لنفسه، وكان الملك الأفضل يعتقد أنه كلما استولى سلطان الروم على بلد سلمه إليه، فلما

تسلم تل باشر لنفسه اعتذر إلى الأفضل بأن تل باشر ليست من بلاد الظاهر ولا من بلاد إخوته.

ولما بلغ شهاب الدين أتابك الملك العزيز صاحب حلب أمر سلطان الروم، بعث إلى السلطان الأشرف موسى ابن الملك العادل يستنصر به، وكان يومئذ بظاهر مدينة حمص في مقابلة الفرنج، فتوجه رحمه الله بعساكره للقاء سلطان الروم، فانهزم منه سلطان الروم طالباً بلاده.

وساق السلطان الملك الأشرف تبعاً له إلى أن أخرجه من بلاد الشام، وتسلم تل باشر، ورعبان، وسلمها إلى شهاب الدين أتابك، وكانت هذه النوبة من سعادات الملك الأشرف العجيبة ووقعاته الغريبة، فإن الملك الأشرف يومئذ كان في جمع قليل، وكان سلطان الروم في جموع كثيرة العدد غزيرة المدد، ولم يكن في ظن أحد أنه يُفْلِحُ حدُّهم بهذا الجمع بل ولا بأضعافه.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب قدس الله روحه بمخيمه بخربة اللصوص، وذلك بعقب خروج الفرنج خذلمهم الله تعالى ووصلهم إلى الغور قاصدين الاستيلاء على البيت المقدس واسترداد ما أخذ منهم من البلاد الساحلية.

ولما توفي السلطان الملك العادل كُتِمَ موته إلى أن أدخل في محفة إلى قلعة دمشق، ودفن بها، ثم أظهر موته، وجلس ولده الملك المعظم للعزاء، وكانت مدة عمره ثلاثاً وسبعين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه من حين ملك مصر واستتب له الأمر ثمان عشرة سنة وشهوراً، وكانت وفاته في جمادى الآخرة.

سيرته رضي الله عنه:

كان رضي الله عنه جميل السيرة، حسن الطويّة، وافر العقل حازم الرأي، كثير التجارب، ذا معرفة بدقائق الأمور، مواظباً على أداء المفترضات والنوافل، محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأوامر الشرع المطهرّ منزجراً بزواجره، حسن العقيدة محباً للدين وأهله، متبعاً للسنّة كارهاً للبدعة، مبالغاً في إطفاء نارها وإخفاء منارها، كثير التلاوة والصيام والقيام على كبر سنه، مجاهداً في سبيل الله عز وجل، ذاباً عن دينه، مائلاً الى العلماء وأهل الخرق، وكان مع ذلك مسعوداً في جميع أموره مظفراً على من ناواه منجحاً في كل أمر قصده ونواه.

ومن جملة سعادته أنه خلفَ أولاداً لم يخلف أحد من الملوك مثلهم في بسالتهم وإقدامهم، وعظم شأنهم، وجلالة قدرهم وبعد صيتهم، وعلو همهم، وهيبة أهل الأرض قاطبة لهم، كل منهم إذا جرد النظر إليه ظنّ أنه أفضل أهل دهره، وأنه لاشبه له في عصره:

من تَلَقَّ منهم تُقَلُّ لاقيت سيدهم  
مثل النجوم التي يسري بها الساري

ولما توفي السلطان الملك العادل استقر في السلطنة بعده ولده السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب، فخطب له إخوته وهم أهل بيته، في بلادهم، و ضربوا السكة باسمه.

وأما الذي كان يختص به من البلاد عند موت والده فالديار المصرية، وبلاد اليمن، ونائبه بها ولده السلطان الملك المسعود وقد ذكرناه.

واستقر في الملك بدمشق وأعمالها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى، وبلاد الشرق السلطان الملك الأشرف مظفر الدين شاه أرمن موسى.

## نزول الفرنج على دمياط

وفي هذه السنة نزلت الفرنج على دمياط، وزحفوا إليها براً وبحراً فخرج السلطان الملك الكامل رحمه الله لقتالهم فنزل في دمياط المقابل لها الى بورة<sup>(١٨)</sup>، ونزل الفرنج في الجانب الآخر والنيل بين الفريقين.

وكان نزول الفرنج على دمياط لثلاث مضيّن من شهر ربيع الأول، وذلك قبل وفاة السلطان الملك العادل بثلاثة أشهر وأربعة أيام.

واشتد زحف الفرنج على دمياط ومحاصرتهم لها، وكانت أكثر عساكر المسلمين قد جهزوا خيولهم الى الربيع، وبقي اكثرهم رجالةً فضعفت نفوسهم بسبب ذلك، وخافوا من عدوهم، وجرت أمور مع ذلك أوجبت خروج السلطان ومن معه من المخيم ليلاً إلى أشمون، ولما أصبح الصباح دخل الفرنج مخيم المسلمين واستولوا عليه، واحتاطوا بدمياط وأحرقوا بها براً وبحراً، فعظم البلاء واشتدت الرزية.

وأما السلطان رحمه الله فإنه لما وصل إلى أشمون أخرج الأموال وأنفقها في الناس، وعوضهم عما ذهب منهم، ثم وصل أخوه السلطان الملك المعظم صاحب دمشق بعسكر كثير من فارس وراجل، فاجتمعت العساكر الاسلامية، وعادت الخيول من الربيع فعاد السلطان رحمه الله فنازل الفرنج، والفرنج منازلون دمياط.

ونشب القتال بين الفريقين، وحفر الفرنج عليهم خنادق يمتنعون بها من السلطان، وجدوا في حصار البلد ومضايقته الى أن خرجت السنة.

## سنة ست عشرة وستمئة

دخلت هذه السنة والمسلمون محققون بالفرنج محاربون لهم، والفرنج محاصرون لدمياط، وقد اشتدت مضايقتهم لها، فقلَّت الأوقات بدمياط حتى هلك أكثر أهلها، وضعفوا ووقع فيهم الوباء والفناء.

استيلاء الفرنج على دمياط: ولما طالت مدة الحصار على دمياط، وعدمت عندهم الميرة، وكثر الوباء عندهم حتى هلك أكثر مقاتليهم لم يبق لأهل البلد منعة، ولا بمصايرة العدو طاقة، وزحف الفرنج إليها فملكوها واستولوا عليها، واسترقوا من وجدوه بها وذلك يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان فكانت مدة حصار الفرنج لها ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً.

ولما ملك الفرنج دمياط تأخر السلطان رحمه الله بالمسلمين إلى جوجر<sup>(١٩)</sup> فنزل هناك وبنى بها دوراً وأمر الناس بالبناء فصارت هناك مدينة عظيمة وسماها المنصورة، وأعطى أخاه الملك المعظم دستوراً بالمضي إلى الشام، وجمع العساكر للجهاد العدو.

## سنة سبع عشرة وستمئة

دخلت هذه السنة والفرنج خذلهم الله متملكون لدمياط، والسلطان رحمه الله بمنزلته المسماة بالمنصورة.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماه، وذلك لثلاث بقين من ذي القعدة، فكانت مدة عمره خمسين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه تسعاً وعشرين

سنة وشهوراً، فعقد الملك بحماه بعده لولده الملك الناصر صلاح الدين قلعج أرسلان بن محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، ولم تكن الوصية بالملك إليه، وإنما كانت لأخيه الملك المظفر تقي الدين محمود الذي هو ملكها اليوم، لكنه كان عند وفاة أبيه بمصر عند خاله السلطان الملك الكامل رحمه الله، وكان الملك الناصر قلعج أرسلان بدمشق، فاستحضره زين الدين وزير صاحب حماه، واستحلف الناس له، وملكه على بلاد أبيه وهي حماه والمعرة وسلمية وبارين.

### سنة ثمان عشرة وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق الى أخيه السلطان الملك الأشرف مظفر الدين رحمه الله مستنجداً به على الفرنج خذلهم الله، فجمع السلطان الملك الأشرف العساكر، وجاءتها نجدة صاحب ماردين، ثم سار الى حمص مخياً على البحيرة، ووصلهم عسكر حلب، والملك الناصر قلعج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماه والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ثم توجهوا قاصدين الديار المصرية نجدة للسلطان رحمه الله.

وأما الفرنج فإنهم خرجوا من دمياط ونازلوا السلطان في المنصورة وبينهم وبينه بحر أشمون، واستمر القتال بين الفريقين براً وبحراً.

### فتح دمياط

ولما وصل السلطان الملك الأشرف والملك المعظم بمن معها من

العساكر، بعث السلطان في بحر المحلة أسطولاً فدخلوا الى بحر دمياط ليمنع الميرة عن الفرنج، وأمر السلطان فبنيت الجسور عبر عليها المسلمون الى جزيرة شر مساح التي الفرنج خيمون عليها.

وكان الفرنج قد عزموا على الرحيل في الليل، فأحاطت بهم العساكر وقد دخلوا أرض السرمون، ودارت الحرب بينهم وبين المسلمين، ووقع أسطول المسلمين من كل جانب على أسطول الفرنج خذلم الله وشوانيهم، وقتل منهم خلق عظيم حتى لم يبق لهم سبيل الى الهرب بوجه من الوجوه، وأيقنوا بالهلكة فراسلوا السلطان الملك الكامل رحمه الله يبذلون له النزول عن دمياط على أن يؤمنهم، فأجابهم الى ذلك وشرط عليهم اطلاق من في أيديهم من أسرى المسلمين، وأخذ منهم رهائن ملوكهم على تسليم البلد وتقرر بينهم صلح عام مدة ثمان سنين.

وتسلم السلطان دمياط لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب، فكانت مدة تملك الفرنج لها سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وكان هذا الفتح أعظم الفتوح وأجلّها، فإنهم لو استمر تملكهم لها لكان ذلك سبباً لاستيلائهم على أكثر البلاد الاسلامية، لكن أبى الله تعالى الإيعاز هذه الملة ونصرها، وجعل ذلك على يد أهل البيت الأيوبي الذين استنقذ الله تعالى بسلفهم بيته المقدس من أهل الطغيان، وترجو أن يُقر بفتحه على أيدي خَلْفِهِم عيون أهل الإيثار آمين.

ولما تسلم السلطان رحمه الله دمياط دخلها المسلمون وأقيمت الجمعة بها يوم الجمعة لسبع بقين من رجب، فَضَحَّ المسلمون بالبكاء من فرحهم، وأكثروا من الثناء على الله سبحانه شُكراً على ما أولاهم من هذه النعمة التي يعجزون عن بلوغ شكرها، وتكلُّ ألسنتهم عن وصف كُنْهِ قدرها.

### سنة تسع عشرة وستمئة

في هذه السنة قصد السلطان الملك المعظم صاحب دمشق حماه، فأغلق صاحبها الملك الناصر أبوابها وحفظ أسوار بلده بالمقاتلة.

وكان الملك المعظم قد أظهر أنه لم يأت للمحاربة وإنما أتى طلباً للمجاهد إقبال، وهو أمير من أمراء السلطان الملك الكامل كان قد هرب منه، وتقدم إلى أخيه الملك المعظم بطلبه.

ولما جرى ما ذكرناه من احتفاظ الناصر صاحب حماه بالأسوار، وغلقه الأبواب في وجه خاله الملك المعظم، اتخذ ذلك الملك المعظم حجة وسيلة إلى الاستيلاء على بلاده، فمضى إلى سلمية وشحنها، ثم مضى إلى المعرة وقبض ما كان بها من الخواصل وشحنها أيضاً، ثم مضى إلى سلمية فأقام بها إلى أن خرجت السنة.

### سنة عشرين وستمئة

في هذه السنة وصلت كتب السلطان الملك الكامل والملك الأشرف إلى أخيها الملك المعظم، وهو بسلمية، ينكران عليه ما فعل من قصده صاحب حماه وتشحينه على بلاده، فاعتذر إليهما، ثم عاد إلى دمشق وفي قلبه أثر من ذلك، فكاتب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل صاحب ميافارقين، وكان نائب أخيه الملك الأشرف بأخلاق يدعو إلى مخالفة الملك الأشرف والعصيان عليه، وكاتب أيضاً مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك أيضاً واستماله إليه.

## سنة إحدى وعشرين وستمئة

في هذه السنة عصى الملك المظفر شهاب الدين غازي على أخيه السلطان الملك الأشرف بأخلاق، وجمع عسكرياً كثيراً فقصدته الملك الأشرف، وخرج السلطان الملك المعظم في عساكره الى العطنة<sup>(٢٠)</sup> فنزل بها طالباً أن يمنع الملك الأشرف من قصد أخيه شهاب الدين غازي فلم يقدر على ذلك، والتقى الملك الأشرف وأخوه شهاب الدين غازي فكسره الملك الأشرف رحمه الله تعالى كسرة قبيحة وتسلم أخلاق، وعفا عن أخيه الملك المظفر شهاب الدين وأبقى عليه ميافاوقين، ثم عاد السلطان الملك المعظم الى دمشق وسير ولده الملك الناصر صلاح الدين داود الى إربل، وتحالف هو وصاحبها مظفر الدين بن زين الدين وأتفقا.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله بسميساط رحمه الله، مولده في سنة أربع وستين وخمسة فكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة.

كان عنده رحمه الله فضل وأدب، غير أنه كان فاقداً للسعادة، ناقص الحظ، وله أشعار حسنة جيدة من جملتها قوله يخاطب الخليفة الإمام الناصر لدين الله في أول كتاب كتبه إليه يشكو إليه فيه عمه السلطان الملك العادل، وأخاه الملك العزيز عثمان حيث أخذ منه دمشق.  
مولاي إن أبابكر وصاحبهُ

عثمان قد أخذ بالسيف إرث علي

فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقي

من الأواخر ما لاقى من الأول

فأجابه الخليفة الإمام الناصر عن كتابه بكتاب كتب في أوله:

وإني كتابك يا بن يوسف معلناً  
بالصدق يُخبر أن أصلك طاهر  
غضبوا علياً حقه إذ لم يكن  
بعد النبي له يثرب ناصر  
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم  
وابشر فناصرك الإمام الناصر

وللملك الأفضل رحمه الله في هذا المعنى:  
أما أن للسعد الذي أنا طالب  
لإدراكه يوماً أيدي وهو طالب  
تُرى يريني الدهر أيدي شيعتي  
تمكن يوماً من نواصي النواصب

### سنة اثنتين وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة الإمام الناصر لدين الله، وذلك في ليلة عيد  
الفطر، وكانت خلافته ستاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً إلا يومين،  
وكان عمره نحواً من سبعين سنة.

سيرته: كان صاحب رأي وتدبير وسياسية، وكان فاضلاً متميزاً أديباً  
جيد الفكرة حاضر البديهة، فيروى أن وزيره نصير الدين العجمي  
لما حبسه في داره ومنع من الوصول إليه، وأجرى عليه ما يقوِّته كتب إلى  
الخليفة كتاباً يقول في أوله:  
ألقني في لظى فإن عثرني  
فتيقن أن لست بالياقوت

- ١٠٠٣٥ -

عَرَفَ النَّسِجُ كُلُّ مَنْ حَاكَ لَكَ  
مَنْ نَسِجُ دَاوُدَ كَيْسَ بِالْعَنْكَبُوتِ

فأجابه الخليفة بخطه:  
نَسِجُ دَاوُدَ لَمْ يَفِدْ صَاحِبَ الْعَا  
بَارِ وَكَانَ الْفَخَارُ لِلْعَنْكَبُوتِ  
وَبِقَاءِ السَّمْنِ فِي لَهَبِ النَّ  
بَارِ مَزِيلٌ فَضِيلَةُ الْيَاقُوتِ

## خلافة الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين

هو أبو محمد بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتضي بن المستظهر بن المقتدي وأمه أم ولد، بويع له يوم توفي والده الإمام الناصر، وكان والده قد خطب له بولاية عهده في سائر المنابر الإسلامية، ثم نقم عليه بعد ذلك لشيء بلغه عنه فأسقط اسمه من ولاية العهد وحسبه وضيق عليه تضييقاً شديداً، ومال إلى ولده الأصغر علي وعزم على الخطبة له ونقش السكة باسمه، فاتفقت وفاة الأمير علي في حياة أبيه وخلف أولاداً أطفالاً فبعث بهم الإمام الناصر إلى سينيز (٢١) فأقاموا بها، ثم رضي الخليفة عن ولده الظاهر فعهد إليه وباع له الناس، وكتب إلى سائر الآفاق بإعادة الخطبة له إلا أنه لم يُخرجه من محبسه خوفاً منه، فإنه كان أيداً شديداً القوة عالي الهمة.

ولما توفي الناصر لدين الله أخرج الظاهر بأمر الله من محبسه، وبويع له بالخلافة البيعة الخاصة، ثم بويع له البيعة العامة لليلتين مضتا من شوال من هذه السنة فأظهر العدل ونشره، وأزال الظلم ودحضه وردّ على الناس أموالاً جزيلة كانت قد أخذت منهم، وأزال مكوساً كثيرة كانت قد جُددت عليهم.

وفي هذه السنة قصد السلطان الملك المعظم صاحب دمشق حمص، ونزل عليها فشعث بلدها، واستغل منه جملة، فجاء الملك الأشرف إليه وسأله أن يرحل عنها، فرحل عنها راجعاً إلى دمشق ومعه أخوه الملك الأشرف رحمها الله، فأقام عنده مدة بدمشق ثم رجع إلى بلاده.

### سنة ثلاث وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة الإمام الظاهر بأمر الله، وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شهر رجب، وكانت مدة خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وكان عمر نيفاً وخمسين سنة.

وقد روي أنه لما بُويع قال: كيف يليق أن يفتح دكانا بعد العصر من قد نيف على الخمسين سنة وتقلد الخلافة (٢٢).

سيرته: كان رحمه الله عادلاً حسن السيرة، كارهاً للظلم، وكان شجاعاً بعيد المهمة ذا رغبة في الخير، عقد على دجلة ببغداد جسراً عظيماً، فأنفق عليه أموالاً عظيمة، فصار لبغداد جسران، ولم يكن لها قبل ذلك من مثتي سنة وكسور غير جسر واحد.

ويروي أنه كتب إليه بعض أصحاب الأخبار بحادثة وقعت فيها سعاية ببعض أرباب الدولة، فكتب بظاهاها الى الوزير: إن عاد صاحب خبر كتب مطالعة ضربت عنقه، فامتنع المفسدون من السعاعات، ولم يزل رحمه الله متمسكاً بالعدل، سالكاً طريق الخير إلى أن توفي.

## خلافة الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين

خليفة الوقت وإمام العصر خَلَدَ اللهُ دولته وأعلى كلمته هو أبو جعفر المستنصر، بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد، بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد، بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد، بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله، بن ذخيرة الدنيا والدين أبي عبد الله محمد، بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله، بن القادر بالله أبي العباس أحمد، بن اسحاق، بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر، بن المعتض بالله أبي العباس أحمد، بن الموفق بالله أبي احمد طلحة، بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر، بن المعتصم بالله أبي اسحاق محمد، بن الرشيد أبي جعفر هارون، بن المهدي أبي عبد الله محمد، بن المنصور أبي جعفر عبد الله ، بن محمد الإمام، بن علي السجاد بن عبد الله الحبر، بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي بن كلاب، بن مرة بن كعب، بن لؤي بن غالب، بن فهر - وهو قريش في قول الأكثر - بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمية، بن مدركة، بن الياس، بن مضر، ابن نزار، بن معد، بن عدنان. بويح أعز الله أنصاره بالخلافة يوم توفي والده الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين وعمره يومئذ عشرون سنة أو إحدى وعشرون سنة، وأول كلمة سمعت منه لما ولي: «نستمد المعونة بالله تعالى» فأظهر من حسن السيرة والعدل أضعاف ما أظهره والده، وأفاض من الصدقات، وأجزل من العطاء والأنعام مافاق به على من سبقه من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، فلا تجرد أحداً ممن ورد بغداد في أيامه إلا ناشراً لفضله، شاكراً لبره، داعياً الى الله تعالى في تخليد دولته وتشديد مملكته راغباً إليه في أن يتمتع المسلمون بطول بقائه، وأن يجعل النصر والتأييد من قرناؤه آمين.

## سنة أربع وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وذلك يوم الجمعة بدمشق سلخ ذي القعدة، فكان عمره تسعاً وأربعين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه لدمشق تسع سنين وشهوراً.

سيرته: كان رحمه الله شجاعاً عالي الهمة أبي النفس غزير الفضل عالماً. ولما توفي استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده السلطان الملك صلاح الدين أبو المظفر داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب.

وكان عمه الملك العزيز قد قصد بعلبك ليأخذها من صاحبها، فمنعه من ذلك الملك الناصر، وبعث إليه يتهدده إن لم يرحل عنها فتوخر قلبه بسبب ذلك، واستوحش منه وفارقه وصار إلى أخيه السلطان الملك الكامل.

## سنة خمس وعشرين وستمئة

في هذه السنة خرج السلطان الكبير الشهيد الملك الكامل قدس الله روحه من الديار المصرية في عساكره، فوصل إلى نابلس ونزل بها، ووصل إليه أخوه السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل صاحب بانياس رحمه الله متلقياً له، فأكرمه غاية الإكرام وأحسن إليه.

وكان ملك الألمان المعروف بالانبرطور قد وصل مدينة عكا في جمع من الفرنجية طالباً بلاد الاسلام، قاصداً الاستيلاء عليها، ولما صار السلطان الملك الكامل بنابلس خاف الملك الناصر ابن الملك المعظم منه، فبعث

إلى عمه السلطان الملك الأشرف يستنجد به ، ويسأله المصير إليه، فوصل السلطان الملك الأشرف إلى دمشق، ودخلها في العشر الأخير من شهر رمضان، فاجتمع بالملك الناصر، وقال له: لا يمكنني مقابلة السلطان وإنما أنا أتوجه إليه وأصلح الحال معه، فتوجه إليه واتفق رحيل السلطان من نابلس الى تل العجول ليكون في مقابلة الفرنج، وأما الانبرطور فإنه نزل بجموعه إلى يافا، والرسل تتردد بينه وبين السلطان.

وصل السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل، ثم وصل بعده الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ووصل الملك الناصر داود الى نابلس فنزل بها وجرى بينه وبين عز الدين أيدير مملوك أبيه أموراً أوجبت أن عز الدين فارقه وصار الى السلطان فاستخدمه، وأحسن إليه، وأقطعه اقطاعاً كثيراً.

### سنة ست وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان بتل العجول والملك الناصر داود بنابلس والرسل تتردد بين السلطان والفرنج في أمر الهدنة والصلح.

#### ذكر الهدنة

واقضى الحال أن الأمر انبرم بين السلطان رحمه الله والفرنج على أن يُسَلِّمَ إليهم البيت المقدس داخل الخندق فقط، ولا يكون لهم من بلده إلا قريات معدودة، وإنما فعل ذلك لأن الفرنج كانوا في كثرة من العدد وأمدادهم متواصلة إليهم من البحر، وخاف على البلاد من غائلة العدو، فرأى تسليمه إليهم إلى أن تقوى كلمة الإسلام ويحصل الاتفاق بينهم، وكان ذلك من المصلحة فإن الإمام يجوز له تسليم بلد من البلاد

الإسلامية الى الكفار إذا رأى في ترك التسليم إليهم ضرراً ظاهراً لا يمكن تلافيه.

## منازلة السلطانين الأشرف والكامل دمشق

ثم إنه استقر الحال بين السلطان الملك الكامل والسلطان الملك الأشرف على أن يؤخذ من الملك الناصر دمشق وأعمالها، ويعوض عنها: حران، والرققة، والرهاء، وسروج، ورأس عين، وغيرها، وأن تكون دمشق وما يتصل بها من الأعمال الى عقبه فيق للملك الأشرف، وأن يكون للسلطان الملك الكامل من فيق الى العريش، وأن تؤخذ حماه من صاحبها قلع أرسلان ابن الملك المنصور، وتعطى للملك المظفر تقي الدين ابن الملك المنصور، إذ هو وصي أبيه، والمعهود إليه بالسلطنة، وأن تؤخذ بعلبك من صاحبها الملك الأجدد وتعطى للملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب بانياس، وأن يعطى الملك المجاهد أسد الدين سلمية، فإنها كانت اقطاعاً لأبيه ناصر الدين.

ولما وقع الاتفاق على ذلك توجه السلطان الملك الأشرف، ومعه الملك المجاهد نحو الملك الناصر فاجتمعا به بالقصر وخاطباه فيما وقع الاتفاق عليه، وأخبراه أن السلطان غير قانع منه إلا بتسليم ما في يده، وأخذ ما بذل له عوضاً عن ذلك، فحمله أمراؤه وأصحابه على المخالفة، وأن لا يجيب الى ما طلب منه، وحملوه على الرحيل الى دمشق والتحصن بها، فرحل في أصحابه الى دمشق وساق إليها سوقاً حثيثاً.

ورحل السلطان الملك الأشرف في إثره، وفارق الملك الناصر عمه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل صاحب بصرى وابن عمه الملك المغيث شهاب الدين ابن الملك المغيث ابن الملك العادل، وصارا

مع الملك الأشرف، ودخل الملك الناصر دمشق فستر أسوارها، وحفظ أبوابها، واستحصن بها، ونزل الملك الأشرف بمرج الصفر، فبعث إليه السلطان رحمه الله الأمير فخر الدين عثمان في ألف فارس، ثم بعث مع الملك المظفر تقي الدين ابن الملك المنصور ألف فارس أخرى، فوصلوا إلى الملك الأشرف، وقد نزل بجسر الخشب، وتواصلت إليه الأمداد بعضها يتلو بعضاً، ثم سار السلطان إلى خربة اللصوص فنزل بها، ثم إن السلطان الملك الأشرف بعث إلى أخيه السلطان الملك الكامل يستحثه على القدوم فبعث إليه يقول له: تعلم أن الكرك والشوبك وهي من جملة البلاد التي تعينت لي حصينة فإن تعسر أخذها كيف يكون الحال؟ فاتفق الحال بينهما على أنه إن تعذر أخذها بعد فتح دمشق كان للسلطان الملك الكامل البلاد التي كانت عينت للملك الناصر عوضاً عن دمشق، فرضي السلطان بذلك وقدم إلى دمشق، واتفق هو وأخوه الملك الأشرف على محاصرتها، وضايقوها مضايقة شديدة، وآخر الأمر أنهما تسلمها صلحاً في مستهل شعبان.

**استيلاء السلطان الملك الأشرف على دمشق:** ولما ملك السلطان الملك الكامل رحمه الله دمشق سلمها إلى أخيه السلطان الملك الأشرف، وأخذ منه عوضاً عنها من بلاد الشرق: حران، والرقعة، والرها، وسروج، ورأس عين، وجملين، والموزر، وأبقى على ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم: الكرك، والبلقاء، ونابلس، والأغوار، وأعمال القدس، وبيت جبريل، والصلت.

وتسلم السلطان الكامل رحمه الله البلاد الساحلية جميعها: طبرية، وكوكب، والخليل، والشوبك، ثم برز السلطان الملك الكامل إلى القابون، متوجهاً نحو البلاد الشرقية، فسار إلى سلمية ونزل بها، وسير السلطان الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور خلد الله ملكه إلى حماه في شعبان ليأخذها من أخيه الملك الناصر، فسار إليها ومعه خاله الملك

العزیز عماد الدین عثمان بن الملک العادل، والملک المجاهد صاحب حمص، فنازلها مستهل شهر رمضان، ونصبوا علیها المجانیق.

ولما كان الیوم السادس عشر من شهر رمضان، نزل الملک الناصر صاحب حمه بنفسه جریدة، ومضى إلى خاله السلطان الملک الكامل وهو بسلمیة، وبذل له مالاً عینه لیبقي علیه حمه، فلم یجبه الی ذلك، فسأله أن لا یعطي حمه لأخیه الملک المظفر بل يأخذها السلطان لنفسه، فأظهر له الإجابة الی ذلك، وبعث السلطان نوابه لیتسلموا البلد فامتنع النواب بحمهم من ذلك، ونصبوا الملک المعز ابن الملک المنصور للسلطنة، وقالوا: لانسلّم البلد لغير أولاد الملک المنصور.

ولما رأى السلطان ذلك رحل الی الشرق واستصحب معه الملک الناصر قلج أرسلان تحت الحوطة مضيقاً علیه، إذ ظنّ السلطان أن امتناع النواب من التسليم بمواطأة منه، وأذن السلطان للملک المظفر فی تسلّم البلد إذ هو المعهود الیه بالسلطنة من أبیه، فراسل الملک المظفر النواب فی ذلك، فأجابوه وسلموا البلد إلیه، وكان أحق به من أخیه، وأولى إذ هو أكبر أولاد أبیه سناً وقدرأً، ووصي أبیه بالملک دونهم.

وكان تسلّمه لحمه للیلین بقیتنا من شهر رمضان، ثم توجه السلطان الملک الكامل رحمه الله الی الشرق، فرتبّ أمورها ثم عاد الی مصر.

ولما فتحت حمه رحل العسکر الی الذي كان مرتباً لحصارها الی بعلبك فنازلوها، وأقاموا علی حصارها إلى أن تسلّموها.

## سنة سبع وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محاصر قلعة بعلبك، وكان قد استقر أن الملك الأشرف يأخذها لنفسه، وكنا قد ذكرنا مسير عسكر السلطان الملك الكامل إليها، ونزولهم عليها، وتسلمهم لها، ولم يبق إلا القلعة فنزل العسكر المصري إلى الديار المصرية، وتولى الملك الصالح محاصرة القلعة بمن معه من عساكر السلطان الملك الأشرف، ولم يزل مضايقاً للقلعة محاصراً لها إلى أن تسلمها صلحاً، وعوّض صاحبها الملك الأجدد بهرام شاه خيراً من عمل دمشق، وسلم إليه كل ما في القلعة وتسلم ذلك، ومضى إلى دمشق، ودخل نواب السلطان الملك الأشرف إلى القلعة واستولوا عليها.

## منازلة خوارزم شاه أخلاط وأخذه لها

وفي هذه السنة نزل خوارزم شاه منكبرتي بن خوارزم شاه تكش على أخلاط، وحاصرها وضايقها مضايقة شديدة، وشتا عليها، وحديث ذلك أن خوارزم شاه بعد أن هزمته التتر، وكان من أمره ماقد ذكرناه في موضعه عاد الى بلاد العجم وجمع جمعاً عظيماً، وقوي أمره، وطمع في الاستيلاء على بلاد العراق، وقصدته سنة اثنتين وعشرين وستمئة قبل وفاة الإمام الناصر، ولما علم الخليفة به خاف منه فبعث أبقاراً كثيرة فحرثت المراعي التي في طريقه وقلبت الزراعات، ولما وصل خوارزم شاه الى أطراف العراق لم يجد مرعى، فتوجه الى دقوقا فنهب وسفك وأفسد، ثم مضى الى مرج شهرزور فصالحه الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ووصلت إليه كتب الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق يظهر فيها الميل إليه والانتفاء إلى طاعته، واستحثائه على أخذ البلاد من الملك الأشرف.

وكان سبب ذلك ما كنا ذكرناه من الوحشة التي وقعت بينه وبين أخويه: الملك الأشرف والملك الكامل، فراسل خوارزم شاه الملك المعظم ومال إليه، وبعث إليه خلعة فلبسها وركب بها.

ولما توفي الملك المعظم، وجرى من تفاصيل الأمور ما ذكرناه قصد خوارزم شاه أخلاط ونازلها، وكان نائب الملك الأشرف بها عز الدين أيك مملوكه، وكان بها أيضاً أخو الملك الأشرف الملك المعز مجير الدين يعقوب، وتقي الدين عباس ابنا الملك العادل.

وطالت مدة الحصار بأخلاط وقلت بها الأقوات حتى أكل أهلها لحم الكلاب، وبلغ الرطل الشامي من الخبز بها ديناراً مصرياً، وكان بأخلاط

جماعة من اللاوية، فأخذوا سناجق خوارزم شاه ورفعوها على الأسوار على حين غفلة من أهلها، فخذل الناس عند رؤيتها وانهمزوا يقتل بعضهم بعضاً، ودخل جلال الدين المدينة وملكها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، ثم حاصر القلعة حتى تسلمها بالأمان، واحتاط على أخوي السلطان الملك الأشرف، وعز الدين أيك.

### كسرة الخوارزمي جلال الدين

ولما طارت الأخبار الى السلطان الملك الأشرف باستيلاء خوارزم شاه على أخلاط، وتملكه لها، توجه الى بلاد الروم مستنصراً بصاحبها السلطان علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قلعج أرسلان، فاجتمع به بإبلستين<sup>(٢٣)</sup>، ثم خرج هو والسلطان علاء الدين بجموعهما إلى آق شهر فنزلا بها.

وكان لعلاء الدين عشرة آلاف فارس في ارزنكان، فبعث إليهم يستدعيهم، فوقعوا على ألف فارس كان خوارزم شاه قد جهزهم للغارة وقتلوه، فقتل من عسكر الروم أربعة آلاف فارس، وامتلات الأدوية والجبال منهم، ثم تقدم خوارزم شاه في عساكره ووقعت الحرب بين الفريقين في يوم الجمعة، واستمرت الحرب الى أن حجز بينهم الليل، وباتوا على تعبثهم، والتقوا يوم السبت فأنزل الله تعالى نصره على السلطان علاء الدين صاحب الروم والملك الأشرف، وانهمز خوارزم شاه أقبح هزيمة وقتل من أصحابه ما لا يحصى كثرة وأسر مثلهم، وتوجه خوارزم شاه هزيباً إلى خوي، وبعث تقي الدين عباساً أخا السلطان الملك الأشرف الى الخليفة مقيداً هدية، فأكرمه الخليفة وخلع عليه، وبعث به إلى أخيه، ثم اطلق خوارزم شاه مجير الدين بعد ذلك، وأما عز الدين أيك فقتله.

ثم قصدت التتر بعد هذه الكسرة جلال الدين طمعاً فيه فكسروه،  
وقدم الى دياربكر هارباً، وهم في إثره الى أن اغتاله بعض الأكراد، وكان  
من أمره ما ذكرناه، وكان مقتله في سنة ثمان وعشرين او تسع وعشرين.

### سنة ثمان وعشرين وستمئة

في هذه السنة وثب على الملك الأجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه  
ابن شاهان شاه بن أيوب صاحب بعلبك، كان بعض مماليكه فقتله،  
وذلك في داره بدمشق، وكان عالماً فاضلاً أديباً شاعراً، وله ديوان مشهور  
في أيدي الناس كثير.

### سنة تسع وعشرين وستمئة

في هذه السنة خرج السلطان الملك الكامل رحمه الله من الديار  
المصرية متوجهاً الى الشرق لأخذ آمد من صاحبها، فإنه كان ظالماً سيئ  
السيرة كثير العسف للرعايا، فوصل اليها السلطان رحمه الله، ونازلها في  
شهر ذي الحجة، وزحف اليها فأخذها في يوم واحد، ووقفت على رسالة  
لبعض الفضلاء تتضمن كيفية أخذها فكتبت المقصود منها وهو:

«فان السلطان أعز الله أنصاره لم يقصده إلا غضباً لله، لما انتهكه من  
محارمه، وإقامة لمنازل العدل الذي شرع في هدم معالمه، وشفقة على خلق  
الله الذين بسط عليهم، منذ وليهم، أيدي مظالمه، ولما أبى إلا التماذي في  
الطغيان، والإيغال في مهالك العصيان، وظنَّ ان الثلوج تنجده، وأن  
السلطان يفي له بوعده، وطال ما أخلف من يعدة، وأغر بأصحابه الذين

وقعوا معه بذنوبهم، أمر السلطان أعز الله أنصاره، أبطاله بالزحف فتقدمت وزحفت، وعساكره بالتحرك فتزلزلت الأرض لحركتهم، ورجفت، ودنا الجيش المنصور من السور فدنا وتدلى، ورأى الخصم عين القصم فعبس وتولى، وأطلق الجاليش عقائل التراكيش فكسفت السور وهتكت حجابها، وأماط الزراقون لثامه، وسفر النقابون نقابها، وأرسلت عليهم الحنايا رسل المنايا، وخرجت لهم خبايا البلايا من الزوايا، وأوردتهم الرماح السريع مسارع الختوف، وتفرقت منهم الصفوف لما سلت عليهم السيوف، وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة كل راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين».

### سنة ثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان رحمه الله ببلاد الشرق، وقد استولى على آمد وبلادها، ومعه ملوك أهل بيته وهم: السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى، والملك الناصر داود، والملك المظفر تقي الدين صاحب حماه، والملك العزيز عثمان، وأخوه الملك الصالح اسماعيل، والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم، ثم توجه السلطان راجعاً الى الديار المصرية، ورجع كل ملك الى بلاده.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وذلك في شهر رمضان، وكان ملكاً شجاعاً كريماً كثير البر والاحسان والصدقات.

ولما توفي أقر السلطان بلاده على ولده الملك الظاهر نجم الدين أيوب، ثم توفي بعد والده بمدة يسيره، فعين السلطان الصبيبة<sup>(٢٤)</sup> قلعتة لأخيه الملك السعيد بن الملك العزيز، وهي بيده الآن.

## سنة إحدى وثلاثين وستمئة

في هذه السنة خرج السلطان الملك الكامل قدس الله روحه من الديار المصرية، متوجها الى دمشق، فوصلها واجتمعت إليه بها الملوك والعساكر، ثم برز منها طالباً لبلاد الروم لقتال السلطان علاء الدين والاستيلاء على بلاده.

وكان سبب ذلك تعدي علاء الدين باستيلائه على أخلاط، وتملكه لها فعزم السلطان أولاً على دخول بلاده من جهة الدربندات، فقطع بعضها ثم رأى أن في ذلك خطراً لا تؤمن غاقلته، فرجع منها ونزل بالسويداء، ونزل صاحب خرتبرت الى خدمته، وسأله أن يسير معه عسكرياً إلى خرتبرت ليمنعوا صاحب الروم من أخذها، فسير السلطان الملك المظفر صاحب حماه، وشمس الدين صواب في جماعة من الأمراء، فدهمهم عسكري علاء الدين في عالم لا يحصى، فثبت لهم الملك المظفر، وقاتل قتالاً شديداً غير أنه كان في قلة من العدد، وذلك بالقرب من خرتبرت، فأسر أكثر أصحابه وقتل منهم جماعة، وصعد الملك المظفر في بقية من معه الى قلعة خرتبرت في حمية، وحاصره سلطان الروم مدة، ثم طلب الملك المظفر الأمان فأمنه وأصحابه، وتوجه راجعاً الى السلطان.

## سنة اثنتين وثلاثين وستمئة

في هذه السنة رجع السلطان الملك الكامل رحمه الله الى الديار المصرية، وذلك لأنه دخل الشتاء، وحال الثلج بينه وبين بلاد الروم وفي هذه السنة جهز سلطان الروم عساكره الى الشرق، فنازلوا قلعة الرها ونصبوا عليها المجانيق وضايقوها مضايقة شديدة حتى فتحوها، وأخذوا ماكان بها للسلطان الكامل من الذخائر والاموال، وسيروا ذلك

الى سلطان الروم، وفتحوا أيضاً قلعة حران، وولوا عليها وحفظوها بالرجال والعدد.

ولما بلغ السلطان ذلك خرج من مصر في عساكره، فقدم الى دمشق، ثم خرج منها هو وأخوه السلطان الملك الأشرف رحمهما الله متوجهين الى المشرق، ولما بلغ عساكر الروم قدوم السلطان كروا راجعين الى بلادهم، ومضى السلطان الى الشرق، ونازل قلعتي حران والرها.

### سنة ثلاث وثلاثين وستمئة

في هذه السنة فتح السلطان رحمه الله قلعتي الرها، وحران، وقبض على من كان بها من أصحاب سلطان الروم، فبعث بهم مقيدين الى الديار المصرية، ثم رجع السلطان رحمه الله الى دمشق فأقام بها.

وفي هذه السنة سير سلطان الروم عسكرياً كثيفاً إلى آمد فنازلوها، وصاحبها مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل خلد الله ملكه، فلم يظفروا منها بشيء، وقتلهم السلطان الملك الصالح، فأنكى فيهم نكايه عظيمة.

ولما بلغ ذلك السلطان الكامل رحمه الله خرج من دمشق في عساكره، ودخل الشتاء فرجعت عساكر الروم الى بلادهم.

### سنة أربع وثلاثين وستمئة

في هذه السنة رجع السلطان رحمه الله الى دمشق، وكان قد بُعد عنها

مقدار ثلاث مراحل، ثم خرج من دمشق متوجهاً الى الديار المصرية.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، وذلك لعشر مضيئين من ربيع الأول، فكانت مدة عمره ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وشهوراً.

سيرته: كان عادلاً كريماً حسن الاعتقاد، لين الجانب، كارها للظلم، متجنباً لسفك الدماء، مائلاً إلى الخير وأهله رحمه الله ورضي عنه.

ولما توفي أُجلس في الملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن ايل غازي بن يوسف بن أيوب، وقام بتدبير ملكه وحفظ دولته جدته خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة وقعت وحشة بين السلطانين: الملك الكامل والملك الأشرف رحمهما الله لأشياء باطنة كانت بينهما، لم تقع الاحاطة بتفصيلها، فأدى الأمر في ذلك إلى أن اتفق مع السلطان الملك الأشرف الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص واستمالا الملك الناصر داود صاحب الكرك فمال اليهما أولاً وكاتبهما، ثم فارقهما وتوجه الى السلطان الكامل فالتقاء وأكرمه.

واستمال السلطان الملك الأشرف الملك المظفر صاحب حماه، والحليين، وعلاء الدين صاحب الروم، والأمير عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد، فاتفق هؤلاء كلهم وتحالفوا، وتوجهت الى مصر رسل الملك الأشرف، والملك المجاهد، والملك المظفر، والحليين، فاجتمعوا بالسلطان الملك الكامل وأنهبوا إليه رسالة مضمونها أنهم في خدمته،

وتحت طاعته ما أقام بالديار المصرية، ولم يخرج الى الشام لفتح شيء من البلاد.

ثم اتفقت وفاة علاء الدين سلطان الروم في شهر شوال من هذه السنة، فقام بالملك بعده ولده السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ ابن كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، فسير اليه السلطان الملك الأشرف القاضي شمس الدين الخوثي رسولاً، وسير اليه الملك المظفر صاحب حماه أيضاً رسولاً، وكذلك الملك المجاهد والحلبيون، وتوجه هؤلاء الرسل الى الروم جملة، ومضمون رسالتهم واحدة، وهي: التعزية بأبيه، والتهنئة بملكه، وتجديد ما كان قد تقرر بينهم وبين أبيه، مع الاتفاق عنهم، والحلف لهم.

وفي هذه السنة مرض السلطان الملك الأشرف ولم يزل مرضه في تزايد الى [أن] خرجت السنة.

### سنة خمس وثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك الأشرف مريض مثقل في مرضه، وقد عهد بالملك بعده إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل، واستحلف له الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، وعز الدين ايبيك المعظمي، وكانا يومئذ بدمشق واستحلف له أيضاً الملك المظفر صاحب حماه والحلبيين، ثم كانت وفاة السلطان الملك الأشرف رحمه الله مظفر الدين أبي الفتح موسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وذلك بكرة يوم الخميس لأربع خلون من المحرم، فكانت مدة ملكه لدمشق ثمان عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام، ومدة ملكه من حين مات أبوه تسع عشرة سنة وشهوراً.

سيرته رحمه الله: كان رحمه الله جواداً مفرط السخاء غزير البذل، كثير الصدقات والبر والاحسان لاسيما في آخر عمره، فإنه أوقف بدمشق وقوفاً جليلاً وأثر آثاراً حسنة، ولو لم يكن إلا الجامع الذي أسسه بالعقبية لكان عظيماً قدره، نبيلاً أمره، فإنه رحمه الله عمد إلى خان يعرف بخان ابن الزنجاري تشرب فيه الخمر، وتوَجَّر فيه القيان، فهو من أشهر المواضع بالفسق والفساد وانتهاك الحرمات، فهدمه وصيره جامعاً تقام فيه الصلوات في أوقاتها، ويواظب فيه بقراءة القرآن، وتقام فيه الجمعة، وصار يُعرف بجامع التوبة، ووقف أيضاً داراً لسماح الحديث النبوي، وأوقف عليها، وعلى جامعته وقوفاً عظيمة، إلى غير ذلك من الآثار الحسنة.

ولما مرض مرض وفاته لم يزل ذاكراً الله تعالى بلسانه وقلبه، مستغفراً لما سلف من ذنبه، تائباً متضرعاً مكثراً من تلاوة القرآن إلى أن توفاه الله إلى رضوانه، ونقله إلى ما أعده له من جنانه.

ولنشرع في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الملك الأشرف معتمدين في ذلك على ما نقلناه من رسالة ألفها الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلية الحنفي، فإنه لم أكن حاضراً بدمشق يومئذ.

لما توفي السلطان الملك الأشرف تقرر في الملك بعده أخوه الملك الصالح اسماعيل، وتواترت الأخبار بعزم السلطان الملك الكامل قدس الله روحه على التوجه من الديار المصرية إلى الشام، فأخذ الملك الصالح في تحضير دمشق وتهيئة أسباب الحصار، وتوجه الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص إلى بلده، والتزم بإنفاذ الأموال والرجال، ونزل بدمشق ولده الملك المنصور ابراهيم، وتوجه نجم الدين خليل قاضي العسكر رسولاً من الملك الصالح إلى الروم لطلب النجدة والمساعدة،

وتوجه عزالدين أيبك المعظمي إلى صرخد لتدبير أمورها ويعود.

وتزايدت الأخبار بوصول السلطان رحمه الله أن تحقق نزوله بعجلون، فجدد الملك الصالح في تحصين البلد وقطع الأخشاب وعمل الستائر.

وكان قد وصل من حلب ستة من أمرائها نجدة للملك الصالح، منهم الناصح الفارسي، وأما الملك المظفر صاحب حماه فإنه راسل السلطان الملك الكامل ورجع الى طاعته، ووردت إليه كتب السلطان يتطبيب قلبه ووعدته فيها كل وعد جميل.

ولما كان مستهل ربيع الأول تقدم الملك الصالح بأن لا يبقى أحد من الأجناد بظاهر دمشق، وتقدم بأخذ دور كل من هو من أصحاب الملك الكامل، ودور جماعة أيتام وغيرهم، ونودي بأن لا يبقى أحد بالعقبة ولا قصر حجاج وتهددوهم بالنهب، فلقي الناس من ذلك شدة، ثم أمر الملك الصالح بأن يعمل في كل مكان سد وأمامه خندق، واستخدم رجالة كثيرة، وفرق السلاح ورتب الأجناد والأمرء على الأسوار.

## منازلة السلطان الملك الكامل دمشق وتملكه لها

ثم وصل السلطان رحمه الله الى دمشق ونازلها لعشر بقين من ربيع الأول، وعمل اليزك عند مسجد القدم، وشرعت اللاوية في النهب والخراب، ووصل عزالدين أيبك المعظمي من صرخد، ودخل البلد في تلك الأيام، وكان دخوله في يوم شديد على الناس، قال عفيف الدين المقدم ذكره: فلقد رأيت يوم دخوله من باب الفراديس وهو قائم حائر لا يستطيع العبور من الزحمة وشدة الغلبة وأقمشة الناس بعضها على بعض والخيل تدوسها، ولا يستطيع أصحابها منعهم من ذلك.

ودخل عز الدين وحده بعد الشدة ولم يقدر الجمدار الذي له من الدخول معه لفرط الزحمة، وضافت لذلك صدور الناس وأيقنوا بالحصار الشديد، ولزوا في الدخول إلى المدينة وشرعوا في اخراب الخانات بظاهر البلد.

وبقي الأمر على ذلك أياماً، ثم ضرب البوق وخرج العسكر فالتقوا عند ميدان الحصا وأخذ من كل واحد من الفريقين جماعة، وخرج من الرجالة خلق، ثم بعث الملك الصالح يستدعى الملك المجاهد صاحب حمص فاعتذر بأنه خائف على بلاده من صاحب حماه ولم يأت، وسير مئتي رجل نجدة فأخذ بعضهم في البساتين، وسيروا إلى الملك الكامل فشنق منهم في يوم واحد نحواً من خمسين رجلاً، ووصل بعضهم وهم مجروحون، واستمر الخراب والقتال بظاهر دمشق من الدور والخانات والجواسق والقنى، وقطع الأشجار، وصار كل من له غرض مع أحد وهو غائب، خرج إلى داره فأخربها وربها حرقها.

ثم ضرب البوق وخرجت المفاردة فالتقوا عند الميدان من بعد الظهر إلى صلاة المغرب، وأخذ مملوكان من ممالك السلطان وشيخ يقال له الشخوصي، وأصبح الناس يخربون وينهبون، ثم ضرب البوق بعد أيام وخرج جميع العسكر إلى قصر حجاج والتقوا، فكانت الغلبة للدمشقين وأخذوا من العسكر المصري خمسة عشر فارساً من جملتهم سيف الدين ابن الغول، صورة أخذهم أنهم دخلوا خاناً ليأخذوا جمالاً كانت فيه، فغلق عليهم الباب وأخذوا وعُروا، وعرضوا على الملك الصالح، ولما عرضوا عليه ابن الغول كان عرياناً مكشوف الرأس في أقبح صورة، أنشد:

لا تزدريني بأن ترى خلقي  
فإنما الدرر داخل الصدف

فضحك منه الملك الصالح وأمر بحبسه، ثم أمر جماعة فضمنوه وأخرجوه وأنعم عليه بعد ذلك بخلعه وعشرة دنانير وثلاث، وأعجب شيء جرى لابن الغول هذا أنه لما أغلق عليه وعلى من معه الخان، كان معه كيس فيه دراهم فحلَّه من وسطه ودفنهُ في الخان، فلما خرج من الحبس وضمنه الجماعة ذهب ونبشه وأخذه.

ولما كان السادس والعشرون من ربيع الآخر ضرب البوق وقت صلاة المغرب الى الصبح، وفتحت الأبواب، وخرج العسكر فالتقوا في الميدان الى ارتفاع النهار.

وفي ذلك اليوم قتل سيف الدين بن شجاع الدين جلدك من أمراء ديار مصر، وجاءوا به الى القلعة وبه رمق يسير، فكلمه الملك الصالح فلم يقدر على رد الجواب، ومات في تلك الليلة فغسَّله وكفَّن، ثم سَيَّر الى العسكر فدفن هناك رحمه الله، وأحرقت في ذلك اليوم مدرسة عز الدين أيبك الوراقه وتلك الأماكن كلها.

ولما كان مستهل جمادى الأولى ضرب البوق، وزحف الملك الناصر داود صاحب الكرك من العقبية الى أن قارب باب الفراديس، وزحف الأمير ركن الدين اليحياوي من جهة باب توما، ووصلوا الى جسر الباب بحيث كان النشاب يقع في المدينة، وربما قتل بعض العامة في المدينة، ولم يشك أحد في أن المدينة تهجم.

واستمر القتال الى الليل، وفي وسط الليل بعث السلطان الكامل فرحل الملك الناصر من العقبية، ولما أصبح الصباح خرج الملك الصالح بالحجارين والزارقين والحرافشة فحرقوا ونهبوا وخربوا ورددوا: العقبية، وقصر حجاج، والشاغور، وباب توما، وباب السلام، واضطرب الناس في

المدينة اضطراباً شديداً خوفاً من أخذها بالسيف، وكان أشد ما على الناس بدمشق الطحين فإن الانسان كان يشتري غرارة القمح بخمسة وعشرين درهماً ويطحنها بثلاثين درهماً، فمنَّ الله سبحانه بالرحمة ودخل محيي الدين بن الجوزي وكلم الملك الصالح في الصلح فأجاب الى ذلك، وعوَّضهُ عن السلطان رحمه الله بعلبك وأعمالها، مضافاً الى ما كان بيده من بصرى وأعمالها، وجمع الله الكلمة، وتم الصلح يوم الثلاثاء لتسع مضين من جمادى الأولى، ودخل السلطان رحمه الله الى القلعة في الساعة السادسة من يوم الاثنين منتصف جمادى الأولى، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً مارأى الراؤون مثله في عظمته وجلالته.

ثم تقدم السلطان الى عسكر حلب بأن لا يقيموا بدمشق غير ثلاثة أيام، وعفا عن خامر عليه، ودخل الى دمشق.

ولما ملك السلطان الكامل دمشق بعث الى الملك المظفر صاحب حماه منشوراً بسلمية، وكانت للملك المجاهد، وأمره بالتبريز إلى جهة حمص لتصل إليه العساكر ويجتمعوا على أخذها، فبرز إلى الرستن ونزل به وبعث نوابه الى سلمية فتسلموها، وأمر السلطان الملك الكامل عساكره بالنزول في ظاهر حماه، فنزلوا بالقابون، وبعث الملك المجاهد أهله الى دمشق يلتمس الصلح وبذل جملة عظيمة من المال فنزل أهله بالقصر، ولم يؤذن لهم في الدخول الى دمشق، وكان المتولي لأمرهم والساعي في الصلح بينهم الأمير سيف الدين بن قليج.

وجهز السلطان رحمه الله في تلك الأيام العساكر الى خدمة مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين خلَّد الله ملكه، نجدةً له على حرب التتر، وجعل المقدم عليهم الملك المظفر تقي الدين بن الملك الأجدد صاحب بعلبك وأخاه الملك السعيد.